







حجر أحمر في منهاتن

يوميّات



RED STONE PIZZERIA
CAFE







يوسف المحيميد

يوميات
حجر أحمر في منهاتن



يوسف المحيميد

يوميات
حجر أحمر في منهاتن

يوميات

حجر أحمر في منهاتن

يوسف المحيميد

الكتاب: **يوميات حجر أحمر في منهاتن**

المؤلف: **يوسف المحيميد**

التصنيف: **أدب**

الناشر: **دار مدارك للنشر**

الطبعة الأولى: مارس (آذار) 2012

الطبعة الثالثة: أبريل (نيسان) 2012

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN 978-614-429-013-2

صورة الغلاف: **عبدالعزيز الدخيل**

Madarek مدارك

Madarek Publishing House دار مدارك للنشر

www.mdrek.com - read@mdrek.com

دبي:

مجمع إعمار للأعمال، شارع الشيخ زايد، دبي - الإمارات العربية المتحدة

P. O. Box: 333577 Dubai - UAE

Tel.: 00971 4 361 5177 - Fax: 00971 4 361 5178

بيروت:

فرن الشباك، الطريق العام، سنتر غاريوس، بيروت - لبنان

P. O. Box: 50074 Forn Elchebbak - Lebanon

Tel.: 00961 1 282075 - Fax: 00961 1 282074

إهداء

إلى: «هدى»

على سبيل التبرير

حينما أنجزتُ كتابةَ هذه اليوميات في نيويورك وبوسطن والرياض، في الفنادق والمطاعم والمطارات والقطارات، سألتُ نفسي، لِمَ كتبتُ هذه اليوميات، وهل هي عادتي في السفر، خصوصاً إذا كان سفراً ضمن برنامج مزدحم بالأنشطة والفاعليات؟ وهل في كل مهرجان أو مؤتمر سأسجل يومياتي؟ حتماً لا، إذاً ما الذي جعلني أدوِّن هذه اليوميات تحديداً، خصوصاً قد شاركت قبلها بالعديد من المؤتمرات، سواء في العالم العربي أم في الخارج؟ لماذا أغوتني اللحظة أن أسجِّل ما حدث في نيويورك وبوسطن، ولم أسجِّل ما حدث في فرانكفورت وبرلين ولندن وروما وتونس؟ ما هو المختلف هنا؟

أتذكَّر أن صديقاً مقرَّباً كنت أخبره بكل تفاصيل هذه الدعوة، والمستجدات والندوات التي سأشارك بها، هاتفني بينما كنت أنتظر رحلتي على الخطوط الفرنسية في مطار الملك خالد الدولي، التي ستقلني من الرياض إلى باريس، ومنها إلى نيويورك،

فقال لي إنه يتمنى لو كان معي كي يسجِّل كل تفاصيل الرحلة من المطار إلى المطار، ذهاباً وإياباً، فضحكت وقلت له، لا تقلق، فقد يكون تدوينها بالكلمات أكثر أهمية من كاميرا الفيديو.

لم أكن أقصد ذلك تماماً، لكنني وجدت نفسي أنساق خلف غواية التدوين اليومي، وهكذا جاءت هذه اليوميات، إلى حد أنني حين كنتُ أعود منهكاً آخر الليل إلى فندق «ذا روجر سميث» أفتح جهاز الكمبيوتر المحمول، وأعيد ترتيب لحظات اليوم المنصرم.

لعل أجمل ما في كتابة اليوميات هو أن نتركها لزمنٍ، ثم نعيد النظر فيها، فنرى أنفسنا بشكل مختلف، هكذا دوّنتها ونسيتها، بقيت تتنقل من جهاز كمبيوتر إلى آخر، ونامت ضمن أعمال أخرى مهملة، انشغلت بعدها باستكمال روايتي «الحمام لا يطير في بريدة»، ومن ثم عدت إلى أعمالي القصصية القديمة، التي نفدت طبعاتها منذ أعوام، وجمعتها، فصدرت العام الماضي.

ما الذي أيقظ يوميات نيويورك إذاً؟ وما الذي حرَّضني على نشرها الآن؟ وهذا أيضاً سؤال مهم، فقد دعاني مشكوراً الصديقُ الإعلامي تركي الدخيل، لأن أصبح أحد كتَّاب دار «مدارك» للنشر، حيث أقوم بتوقيع عقدٍ لنشر أعمالي السابقة كلها، وبأسلوبه المقنع لم أملك إلا أن أوافق بحبٍّ على عرضه، الذي اكتشفتُ أنه تمَّ بطريقةٍ احترافية على خلاف اتفاقيات دور النشر الأخرى، وبعد التوقيع على نشر أعمالي الروائية والقصصية، نبَّهني وكيلي الأدبي

في الرياض إلى أن عقدي على الأعمال القصصية مع الناشر الآخر لم ينتهِ بعد، فاعتذرت من الزملاء في «مدارك» على أن أقدم إليهم بديلاً، فتذكّرت تلك اليوميات اللاهثة، والمكتوبة قبل ثلاث سنوات، وهي التي لم تُنشر إطلاقاً، بالإضافة إلى أنها أول عمل أكتبه في هذا الجنس الأدبي، أعني اليوميات، إلى درجة شعرتُ أنني تعلّمت منها كيفية رصد الموقف الواقعي، وتصويره عبر الكلمات، واختزاله بطريقة فريدة، بل إنني وقد استذكرت مواقف جميلة مع أدباء ومثقفين عرب، في فرانكفورت وبرلين ولندن، تمنيت لو أنني دوَّنتها في لحظتها، لأن التسجيل اليومي المباشر - كما كان يفعل الرحّالة الأجانب في أثناء تِجوالهم في الصحراء العربية - يمكِّن الكاتب من القبض على كل لحظة شاردة، وإعادتها بسطوة القلم إلى باحة البياض.

وقد لا يُخفى على القارئ، أن تسجيل بعض المواقف بالكلمات، في مدن وبلاد متنوِّعة، يُسعف روائياً مثلي، لأن يستثمر ذلك في تفصيل أو جزئية مفقودة، داخل نص أدبي جديد، وهكذا أصبحت كل اللحظات المسجونة لديَّ، هي أجزاء وتفاصيل لمشروع روائي محتمل.

يوسف المحيميد

كانون الأول/ ديسمبر 2011م

المحتويات

قبل السفر:
«ديك تشيني» يمنع دخولي إلى السفارة!

ليلة الثاني والعشرين من آذار/مارس 2008 قلت لزوجتي: «عليكِ أن تتدبّري أمرك غداً للذهاب إلى عملك، موعدي تمام السابعة صباحاً في السفارة الأمريكية».

لم أنم جيداً، أكل الصُداع ملامحي بعد أن فتكت بمقدمة وجهي التهاباتُ الجيوب الأنفية، حاولت أن أغطي وجهي بالبطانية، فكتمَت أنفاسي، نزعتها وتقلّبت على السرير، لا أعرف لِمَ هذا القلق؟! صحيح أنها المرة الأولى التي أزور فيها أمريكا، على الرغم من أنني تجولت في أوروبا مراراً، وأحببت كل تفاصيلها، نمت بشكلٍ متقطع، مصحوباً بنوبات فزع مباغتة، استيقظت قبيل منبّه الجوال المثبَّت على السادسة، تذكّرت أنني لم أصوِّر جواز سفري، فشغّلتُ جهاز الكمبيوتر، وتركت آلة التصوير تعمل، بينما رحت أفتِّش عن جوازي القديم، المخرَّم بآلة ثقب الورق، وجدته

ووضعته مع مستندات كثيرة جداً، قلت لنفسي: «قد يسألون عنه أيضاً». همست: «قد يرغبون في معرفة ما إذا كنت زرت اليمن أو سوريا أو السودان...» ضحكت: «جوازي الحالي فيه أختام اليمن وسوريا، إذ زرتهما في دعوتين ثقافيتين».

أخذت المظروفين المجهّزين منذ أسبوع، أحدهما يحمل الوثائق المطلوبة فعلاً، والآخر يحوي وثائق فائضة أو محتملة، هكذا أدرت مفتاح سيارتي وانطلقت في طريق الإمام سعود، حتى دخلت من بوابة جامعة الملك سعود، كانت الطريق شبه خالية، بسبب خروجي قبل طلاب الجامعة، وبعد أن استلمت طريق الملك خالد أو صلبوخ، تجاوزت مخرج طريق العروبة، ثم لمحت مدخلين لحي السفارات، الأيمن للدبلوماسيين، والأيسر للكادحين أمثالي، اتخذت المسار الأيسر، ولم يوقفني الشرطي الذي يتناول ساندويتشاً، وعند نقطة التفتيش أشار الشرطي أن أفتح زجاج سيارتي، سألني: «وين يا الطيب؟» أجبت: «السفارة الأمريكية». قال: «ممنوع». قلت بزهو وثقة: «عندي موعد اليوم الساعة السابعة». أصر بنزق: «عارف، لكن ممنوع، هذي تعليمات». انفعلت وأنا أقول: «إنني دفعت رسوماً عن موعد اليوم، منذ أكثر من أسبوع»، أشار بأن أركن يميناً حيث يقف زميله، وقد صاح به: «يبغي السفارة الأمريكية!» حرَّك الآخر يده آمراً أن أتقدم نحوه، وهو يشير إليّ بأن أخرج من حي السفارات. حاولت أن أعترض: «لكن أنا عندي موعد اليوم». قال: «هذي تعليمات السفارة!». كنت أفكّر هل قاموا

بالبحث عن محطات سفري، ووجدوا أنني سافرت إلى دول غير مرحب بها لدى السيدة أمريكا؟ ثم قلت باستسلام: «لكن لماذا؟ ولِمَ يعطوننا موعداً اليوم، وهم سيرفضون استقبالنا؟».

أخيراً، كشف لي السر العظيم: «نائب الرئيس سيكون في السفارة اليوم»، سألت: «متى سيأتي؟» أجاب بنزق: «الساعة تسعه». عاندت في محاولة يائسة: «لكن موعدي قبل ذلك بساعتين!» أجاب وهو يشير بيده إلى طريق الالتفاف إلى الخروج: «تفضل لو سمحت»، قدتُ سيارتي بحزن، وأنا أتذكر كيف تغلق الطرقات حين يمر الرؤساء والملوك والأمراء، كيف علينا أن نفقد مواعيدنا، وننتظر أمام سيارة دورية معترضة لمدة ساعة أو أكثر، وقد يموتُ من معنا لو كنّا في حالة طوارئ، يا صاحبي دعه يموت! هي لعبةُ الساسةِ إذاً، ويجب أن نتشرنق فيها كحشرات ضئيلة، كنت أنا والشرطي حشرتين صغيرتين وضالّتين في عالم هائل وضخم، علينا أن نلجأ إلى شجرة أو جدار، منتظرين أن تعبر الريح، عدتُ إلى المكتب، وكنت قد استأذنت قبل ذلك بليلة، استلمت هاتف المكتب طِوال الصباح، وكان موظف السنترال في السفارة كلما رد، قال إنه مشغول، ثم يقفل الخط بوجهي، لأنه لا يعرف شيئاً سوى أن يحوِّل مكالمتي إلى قسم التأشيرات، أو إلى أي قسم آخر، كانت تحويلة قسم التأشيرات ترن من دون أن يجيب أحدٌ، ثم يقول صوت مبرمج، إن عليَّ أن أضع رسالة بعد الإشارة، قلت لنفسي: «لأضع رسالةً باسمي وسؤالي ورقم هاتفي»، فعلت ذلك، وكدت

أقول: «إنني كاتب ومدعو من مهرجان اسمه أصوات عالمية في نيويورك»، لكنني لم أفعل، وقد تذكّرت موظف تأشيرات سوداني في وكالة الطيار، قال لي ذات مرة: «لن تتغير الإجراءات المشددة في سفارتهم حتى لو كنت مدعواً من الرئيس بوش نفسه».

هكذا بدأت أولى الإشارات التي يؤمن بها الكاتب البرازيلي، باولو كويلهو، فإلغاء أول موعد لي في السفارة، وتصادف موعدي مع زيارة نائب الرئيس ديك تشيني، يحمل فألاً سيّئاً. قلت لنفسي: «دعك من باولو، ألم يقل إن على الإنسان أن يقاتل لأجل أسطورته الشخصية؟ ها أنذا أقاتل إذن». سأستشهد بك باولو وبغيرك ممن قرأتهم وأحببتهم، متى كانت مقولاتهم تتفق مع هواي، أي إنني في النهاية سأفعل ما أريد.

قضيت الصباح في محاولاتٍ يائسة للاتصال بالسفارة، لم تكن توصيلة قسم التأشيرات تجيب، أما موظف السنترال فهو بالكاد يقول كلمة أو كلمتين، ويقفل الخط برعونة، بحجة أن ثمة اتصالات كثيرة تنتظره، أليس هو حارس خطوط الدولة التي تقود العالم، التي يتوسل إليها العالم، التي ينظر العالم نحوها بقلق، محاذراً سخطها، ومنتظراً رضاها! إذاً، يجب أن أصمت في حضرة موظف سنترال سفارة دولة تعبث بالعالم ككرة قدم أمريكية!

فكّرت في الليل، عليَّ أن أذهبَ في الغد، وأشرح أن إلغاء موعدي جاء بسببهم، وبسبب (ديكهم)، وليس بسببي، أو بسبب

إهمالي. قمت باكراً صافي الذهن، ومن دون كوابيس، قدتُ سيارتي، وسألني حارس حي السفارات، وأخبرته أنني ذاهب إلى السفارة الأمريكية، فسأل عما إذا كان عندي موعد؟ أجبته «نعم» من دون أن أدخل معه في تفاصيل، ثم سألني إن كنت أعرف مقرّها، أجبته بالنفي. قال لي: ثالث دوار، تأخذ يمين، وتكون على يسارك. انطلقت وأوقفت سيارتي في المواقف شبه الخالية، سرت على قدمي حاملاً أوراقي، فوجدت طابوراً طويلاً من البشر المنتظرين، قلت لنفسي: السادسة والنصف الآن، متى حضر هؤلاء، أم تراهم ناموا البارحة هنا؟ سألتُ شاباً ثلاثينياً أنيقاً يقف أمامي، ما إذا كانوا يستقبلونني اليوم وموعدي كان بالأمس؟ أخبرني بأنه في مثل حالتي، أُلغي حجزه بالأمس، وسألهم فأخبروه أن يأتي في الغد. إذاً بدأت الأمور تنفرج، قال لي إن التأشيرة لا تأخذ أكثر من أسبوعين، ما لم يكن لديك نواقص، ثم أخبرني أن الوقوف في الطابور يبدأ من السادسة، ويبدأ الدخول عند الثامنة، أي علينا أن ننتظر ساعتين كاملتين.

«لا يهم! المهم أن نصل وننتهي من هذه التأشيرة».

«تخيّل! سيارة تشيني مرّت من هنا، لا يمكن أن يحدث هذا ونحن واقفون بجوارها».

هززت رأسي «معك حق»، وقد تأملت أكياس الرمل والمدرعة خلفها، والعسكريين يتناول أحدهما ساندويتشاً وكأس شاي ورقياً،

وقال لي الشاب إن أمريكا خسرت بسبب التشديد في سفر الطلاب ورجال الأعمال والسياح السعوديين، ثم نبّهني أنني نسيتُ ورقة يجب أن تكمل بخط اليد، تحوي اسمي والمدارس التي تعلمت فيها، والدول التي سافرت إليها خلال السنوات العشر الأخيرة، وهو نموذج تجده عندهم يخص الذين هم في سنّ أقل من الخامسة والأربعين. سألته إن كانت أول مرة سيسافر إلى أمريكا؟ وقال إنه لن يسافر، والأوراق التي معه ليست له، نظرت إلى حذائه الغريب، كان نعلاً مدهشاً ومميزاً، وكذلك ساعة يده الفاخرة. فجأة رنّ هاتفه المحمول، وتحدث مؤكداً إنه في الطابور الآن أمام باب السفارة.

أقبلت من بعيد ست نساء متشابهات، شعورهن الناعمة مسدلة، ويغطين أعينهن بنظارات شمسية سوداء، وعباءاتهن لا تخفي تفاصيل أجسادهن، جئن صوبي، ثم تقدم نحوهن الشاب وفتح مظروفه، وصار يُخرج أوراق كل واحدة منهن، ويطلب منها أن توقّع نموذج الطلب المكتمل، وفجأة أصبح أمامي ستة أفراد بدلاً من شخص واحد. جوازاتهن مدوّن على أغلفتها: المملكة المغربية. سألت نفسي: هل هن خياطات مغربيات سيذهبن إلى أمريكا كسائحات؟ وهل الشاب الأنيق كان مجرد معقّب؟ تذكرت هيئات الشباب المعقبين القرويين والبدو، وملابسهم الرثة، أمام مبنى جوازات الرياض، هل يمكن أن يكون هذا الشاب الذي تفيض النعمة من خديه الناعمين مجرد معقب؟ وهل هذا الحذاء المميز

والساعة الثمينة لمعقب؟ لا، أبداً، توصلتُ أخيراً إلى أنه مدير أو مشرف على قصر أمير، وهؤلاء النسوة عاملات في القصر، وسيسافرن مع مولاهن إلى أمريكا.

خرجت الموظفة الأمريكية من الكشك الصغير أمام البوابة، وهي تحمل كرسياً أحمر، فتحته لعجوزٍ منهكة، بصحبة ابنها الأربعيني، جلست بصعوبةٍ ممتنةً للشابة الأمريكية، حين وصل دوري وقفت أمام الشابة داخل الكشك، تناولت أوراقي، وألصقت صورتي الشخصية في مكانها على نموذج الطلب، وخطوت تجاه حارس أمن هندي أصلع يضعُ نظارتين سوداوين، ذكرني بأبطال أفلام هوليوود، كان يراجع الأوراق والموعد، ويقارنها بقائمة مطبوعة بجواره، حاول الرجل الأربعيني الذي يسحب أمه العجوز معه أن يتخطى الذي أمامه، وطلب من الحارس الهندي أن يدخله قبل غيره، لأن أمه متعبةٌ ومريضةٌ، حدّق به الهندي بغلظة، وقال له بسخرية: تعال هنا مكاني! فاعتذر الرجل، وقال إن هناك من يتجاوز الطابور، مشيراً إلى فتى حضرمي تجاوزنا بالفعل. كما لو خجل الهندي من دماثة الرجل الذي يقود أمه، وأدخله قبلنا، انتبهتُ إلى الفتيات المغربيات المتجمهرات، وقد استُبعدن إلى ممر العربات، كن يتحدثن بقلق، قبل أن يظهر الشاب الأنيق أمامهن، كانت إحداهن لها شامة سوداء صغيرة قرب أنفها، لكن المصور نظّف وجهها بواسطة برنامج الفوتوشوب، ما جعل الحارس الهندي يوقف دخولها، بحجة أنها مختلفة عن الصورة،

أشار الحارس نحوي، وتقدّمت ثم سألني عن موعدي اليوم أم الأمس؟ أجبته: أمس. راجع القائمة ثم وضع علامة صح أمام اسمي، وسألني شرطي سعودي كان يقف بجواره، أن أسلّم أي أدوات معي كجهاز الجوال والمفاتيح إلى مكتب الاستقبال قبل الدخول، سلّمتها إلى الموظف السوداني الطويل، ووضعها داخل مظروف، ثم ناولني قصاصة ذات رقم، كي أستلم أغراضي عند الخروج، دخلت ووجدت رجلاً وسيدة يقومان بالتفتيش، خلعت حذائي ووضعته على السير المتحرك، دخلت أخيراً إلى السفارة، ومررت تحت العلم الأمريكي الذي يخفق في هواء آذار/مارس، تجاوزت بوابةً زجاجيةً، وخلعت حذائي مرة أخرى، ووضعت أوراقي في آنية بلاستيكية، عبرت ممراً طويلاً، ثمّة عربة لبيع المشروبات الساخنة والوجبات الخفيفة، حيث الأكل والسوائل ممنوع إدخالها إلى السفارة. في القاعة الأولى قمت بتعبئة النموذج، مستعيناً بذاكرتي كي ألتقط مدارس: فلسطين المتوسطة، والجزيرة الثانوية، وجامعة الملك سعود، وتواريخ الدراسة فيها، ثم استعنت بأختام الجواز كي أتعرف إلى الدول التي زُرتها خلال السنوات العشر: مصر، لبنان، ألمانيا، بريطانيا، الإمارات، عُمان، سوريا.. هل قلت سوريا؟

يقول أحد أصدقائي إن سفرك إلى سوريا واليمن والسودان قد يضعك في دائرة الشك، ويقلل من فرص ظفرك بالتأشيرة، ليكن، فأنا كاتب تصلني الدعوات من كل أنحاء العالم، خصوصاً العالم العربي.

في عمق الصالة الثانية شاشة بلازما تكرر فيلماً تعريفياً قصيراً، يشرح للمراجعين كيف يضعون أربعة أصابع على جهاز البصمات، فاليد الأخرى، ثم الإبهامين معاً. بعد انتظار سمعت المنادي الداخلي: 433، فقفزت نحو الشباك رقم خمسة، وقالت لي سيدة عربية، ضع يدك على جهاز حفظ البصمات، ففعلت.

كنت متنبّهًا إلى الشاشة التي تتغير، وهي تحدد رقم الكاونتر، ورقم الشخص الذي سيحظى بالمقابلة، لكنه فجأة تجاوز رقمي، اللعنة ما الذي يحدث؟ ها هي الإشارات مرة أخرى تقول عد إلى البيت، واكتب في غرفتك الصغيرة العلوية، ودع عنك السفر والمحاضرات في نيويورك. همس رجل مصري بجواري، بأنهم تجاوزوا رقمه أيضاً، ثم انتظرنا بقلق، وعادت الأرقام من جديد، وأشارت إليّ اللوحة الإلكترونية أن أذهب إلى الشباك 11، حيث يجلس السيد باتريك فيشر، نائب القنصل، كما أظن، نظر في ملامحي، وطلب أن أستخدم السماعة، لا أعرف كيف تذكرت فجأة الأفلام حين يطلب المحامي الذي يقابل السجين أن يرفع السماعة، ويسأله بعض الأسئلة حول قضيته، بحثاً عن دليل يساعد على براءته. سألني عن سبب سفري، فأخبرته كما هو مدوّن، أنني مدعوٌّ من «ذا بن» للمشاركة في المهرجان الرابع لأصوات عالمية، قال لي: ماذا تكتب؟ أجبته أنني أكتب في الأدب، وأنني روائي، وقد صدرت لي رواية في نيويورك مؤخراً. نظر ثم ابتسم وسأل عن عنوانها، أخبرته بالعنوان واسم الناشر، حدَّق لدقائق في الشاشة

أمامه، ونقر بأصابعه على لوح المفاتيح، لا أعرف عمَّ يبحث، وكنت أفكّر هل يتحقق من صدق ما أقوله؟ من دون أن يرفع رأسه سأل: منذ متى تكتب؟ قلت: منذ عشرين عاماً، لكن هذا هو العمل الأول الذي يصدر بالإنكليزية. سألني: لمن تقرأ من الكتّاب؟ ابتسمت: لكثيرين، وعددت له بعض الأسماء، وحين ذكرت اسم غابرييل غارسيا ماركيز، انفرجت أسارير وجهه، وقال: هل تعرف أن روايته «مائة عام من العزلة» معقدة وصعبة القراءة! أجبت بأنني وجدْتُها سهلة وواضحة ومترابطة. قال إن كثرة (الفلاش باك) فيها، والعودة المستمرة إلى الوراء كانت مربكة له كقارئ. قلت هي تعتمد أساساً على ذلك، منذ المشهد الأول، حين يستعيد أوريليانو طفولته مع والده ومشاهدة نزول الثلج لأول مرة، وقت أن وقف أمام كتيبة الإعدام. قال لي غيرَ مصدّقٍ: يا إلهي ذاكرتك رائعة.

ناولني باتريك بطاقة التعريف به، وبطاقة استلام الجواز بعد أسبوع، شكرته ومضيت.

اليوم الأول
احتجازي ثلاث ساعات في المطار!

يوم الثلاثين من نيسان/أبريل كان مُضنياً حقاً، في الصباح الباكر وصلت مطار شارل ديغول في باريس، بحثت عن الصالة التي سأغادر منها إلى نيويورك، حتى وصلت إليها «إي47». كان المكان المخصص للمسافرين فارغاً، فالوقت ما زال مبكراً جداً، وأحتاج إلى الانتظار مدة سبع ساعات، تجوّلت في المطار، ومررت بمكتبة، وفي ركن الكتب الأجنبية، وهي طبعاً الكتب الإنكليزية، اقتنيت رواية «مس دالاواي» لفرجيينا وولف، ضمن إصدارات «بنغوين كلاسيك»، وقد سُعدت كثيراً حين وجدت إحدى روايات أمين معلوف بالفرنسية. ذهبت إلى مقهى، وكانت النادلة السوداء تتنقل بين الكاونتر والداخل، إذ تجلب من الداخل أنواعاً من الكيك المجهّزة للبيع، وترتّبها في لائحة العرض الزجاجية، كانت تتحرك وهي ترقص مع الموسيقى، وقفتُ أمامها مباشرة من دون أن تعيرني أي اهتمام؟ قلت لنفسي ألهذا الحد من الضآلة أنا بحيث

لا تراني؟ وقد تذكرت قصة «هل من أحد هنا؟» لجوستاين غاردر المكتوبة للأطفال، والشخصية المحورية فيها التلميذ «لا أحد» الذي سأل عنه المدرس فقيل لا أحد، ومذّاك وطوال زمن القصة أصبح اسمه: لا أحد! هل أنا الآن لا أحد! تجرّأت وتحدثت إليها: معذرة؟ أجابت من دون أن تنظر نحوي، ومن دون أن تتوقف عن العمل والرقص: انتظر. تنفست بغبطة، وقلت إذاً أنا أحد، فهناك من سمعني وقال لي: انتظر! بعد دقائق جاءت أمامي فطلبتُ قهوةً، ثم مضيت. كنت قد نسيت نظام التعامل في أوروبا، وأن عليك الانتظار، حتى يؤذن لك بالكلام، أحياناً أقول لنفسي ما أجمل فوضى العرب! كم نحتاج إليها أحياناً!

جلست في المكان المخصص لرحلتي رقم 18 إلى نيويورك، نظرت عن يميني إلى الخارج عبر الزجاج الهائل، ولفتني المطر الذي يهمي بنعومة فوق أجسام الطائرات النائمة بسكون، وثمة عمال بخوذات وملابس فسفورية مضيئة في الظلام الذي بدأ يتخفف قليلاً، انتبهت إلى وجود كراسي مخصصة للكتابة، ففي طرف كل منظومة كراسي متجاورة هناك كرسي بطاولة دائرية صغيرة متحرّكة بعصا مثبتة، يا إلهي كم هو رائع أن تحرك حامل هذه الطاولة الصغيرة، بعد أن تجلس لتصبح أمامك بغوايتها، كي تكتبَ أو تقرأ، أو حتى تأكل، وضعت جهاز الكمبيوتر المحمول، وفتحته، وبدأت أكتب كما هي عادتي الصباحية، صحيح أنني كنت منهكاً للغاية من سفرٍ ليلي طويل، لكنني أحب اعتياد الأشياء،

وليست بالضرورة أن تكون كتابة مهمة، أو أن أعتمدها ضمن رواية ما، بل قد تكون للتسلية ولسلة المهملات حتماً، فهذا الجهاز المذهل، أعني الكمبيوتر يحوي سلة مهملات رائعة، لا تحتاج إلى تغيير كيس كل بضعة أيام، ولا إلى أي شيء سوى رمي الملف فيها فحسب، وتفريغها في ما بعد.

في جانب الكراسي أمام الزجاج الواسع المطل على موقف الطائرات، انهمك أفريقيٌّ بلباسه التقليدي في صلاة الفجر، جلست قربه فتاتان، إحداهما وضعت حقيبتها على الأرض، وأسندت رأسها عليها، وفعلت الأخرى مثلها، ثم غادرتا في ملكوت النوم بكل بساطة، قلت لنفسي إنني بحاجة شديدة إلى أن أفعل ذلك، خصوصاً أنني لم أنم طوال زمن الرحلة ليلاً، كنت متردداً وخجلاً، كيف لي أن أتمدد ببساطة أمام عامة الناس، وجدت ثلاثة مقاعد ليس بينها مسند ذراع، فتمددتُ، وقد وضعت حقيبة الكمبيوتر تحت رأسي، ليس كوسادة، بل خوفاً عليها من أن تُسرق، كنت كلما شعرت بجسد آدمي يمر قربي كففت قدمي الممدودتين، لا أعرف هل خجلاً؟ أم احتراماً للآخرين، كما اعتدت منذ طفولتي؟ أم ماذا!؟

لم أبقَ طويلاً، فنهضت قلقاً وجائعاً، أخذت «كرواسان» وشاياً، وجلست إلى طاولة عالية قرب الكافتيريا فأكلت، ثم قررت أن أبحث عن موصل ثنائي لسلك شحن الكمبيوتر المحمول، ففي المطار يوجد مقابس كهربائية للاستخدام قرب المقاعد، لكن

توصيلة الشحن لدي من نوع ثلاثي القابس، ما يجعلني أبحث عن محول إلى ثنائي، وجدت عند محل أدوات أجهزة جوال، واضطُررت إلى اقتنائه على الرغم من ثمنه الباهظ، شبكت جهاز المحمول في الكهرباء، وشرعت أكمل رواية «مس ديلاوي» لفرجينيا وولف.

أُعلنَ عن الرحلة، واصطفّ الركاب في طابور طويل جداً، قررت أن أذهب إلى دورة المياه المجاورة، وحين عدت لم يكن الطابور قد خفَّ عمَّا قبل، وقفت، وحين وصلت إلى زنجي يدقق بالتذكرة والجواز، نظر في صورتي بالشماغ، ثم نظر نحوي حاسر الرأس، وقال بسخرية: هو لا يشبهك لكن لا عليك... انطلق. ضحكت وأخذت جوازي وبطاقة صعود الطائرة ومضيت إلى داخل الطائرة، التي كانت ضخمة ومزدحمة بشكل يكتم الأنفاس، حين وجدت مقعدي بجوار سيدة تجلس إلى النافذة، قالت لي بأدب: هل يمكن أن تبدل مقعدك مع زوجي؟ سألتُ أين مقعد زوجك؟ أشارت إلى الخلف: 35 بي. قلت أخشى أن يكون بجوار النافذة، لكن سأرى. مضيت ووجدته واقفاً وإلى جواره أيضاً رجل آخر يريد مكانه كي يجلس مع زوجته، يا لهذه الفوضى، أخيراً أخذت المكان المطل على الممر، وهو لا يختلف عن غيره.

أقلعت الطائرة بنا إلى نيويورك تمام الواحدة والربع من ظهر يوم الأربعاء الثلاثين من نيسان/أبريل، صرفت وقتي بالقراءة في كتاب فرجينيا وولف، ثم الكتابة على كمبيوتري المحمول، حتى تعبت، وكاد رأسي يسقط من شدة الإعياء، كان الركاب من حولي

يلتحفون بأغطية صوفية رمادية موزّعة على المقاعد، ويغطون في سبات عميق، اللعنة كيف أنام مثلهم؟ فتحت كيس النايلون وأخرجت الغطاء الصوفي ووضعته فوق رأسي كي أوهمَ نفسي أنني في سريري، مددت قدمي أسفل المقعد المقابل، ولم أنجح، عطفت جسدي تِجاه الراكب المجاور ولم أنجح، فتحت علبةً صغيرة فيها سدادتا أذنٍ من الإسفنج، وغطاء للعينين برباط مطاطي، ومنديل معطر، أخذت غطاء العينين وشددته حول عينيَّ، فأصبحت الدنيا ظلاماً مطبقاً، لا أعرف إن كنت نجحت أم لا، هل نمت لدقائق أم أكثر، كل ما أعرف أن خط سير الطائرة كان في الموقع ذاته على المحيط الأطلسي.

أخيراً وصلت الطائرة مطار نيويورك في تمام الخامسة والربع عصراً، وتسارع الركاب بحثاً عن دور متقدم في طابور متوقع، سرت مطمئناً ودائخاً، كانت ساعة جوّالي تشير إلى العاشرة والربع ليلاً بتوقيت الرياض، أي إنني صرفت أربعاً وعشرين ساعة مسافراً، ولم أنم بعد، كان هناك شرطي زنجي يوجِّه الركاب إلى كبائن موظفي الجوازات، نظر في جوازي المتهالك، ووجهني إلى كبينة رقم 46 برفقة عائلة أوروبية كانت أمامي، حينما وقفنا كان الموظف السمين بارداً وبطيئاً، ما جعل الزوج الإيطالي كما أظن، يخرج من الطابور، ويقف أمام الكبينة رقم 47، مؤكدًا على زوجته وطفليه البقاء في الطابور، حتى يتمكن من اختيار الأسرع، هي الفوضى إذاً شعار هذه البلاد، فهي ليست بريطانيا

إذاً. انصرفت العائلة من أمامي إلى الطابور المجاور، ووجدت نفسي أقف على الخط الأحمر، قرأت تعليمات تعبئة أوراق الدخول الملصقة، وانتبهت إلى ضرورة تعبئة خانة التاريخ، فهو مما ينساه المسافر عادة، وضعت التاريخ، وقد رنَّ جوالي في جيبي، وأدخلت يدي مرتبكاً فأقفلته، وقد تذكرت علامات منع استخدام الهاتف في هذه المنطقة. وقفت أمام الموظف، نظر في جوازي وتأشيرة السفر من السفارة الأمريكية، همز لوحة المفاتيح أمامه ونظر في الشاشة، ثم تأمل وجهي مراراً، تذكرت حواري الأخير مع زوجتي:

-لست مطمئنة إلى سفرك هذه المرة!

-لا تخشي شيئاً، كل الأمور ستكون جيدة.

-لا أعرف كيف أتذكر قصة الحميدان، وأخشى عليك منهم!

-أنا ذاهب بدعوة رسمية للمشاركة في مهرجان أدبي عالمي.

-ولو...!

فعلاً، ولو، كما قالت. الأمر إذاً لا يتطلب أن يسأل الموظف عن سبب مجيئي إلى أمريكا، فهو سؤال معتاد، ولكن يتطلب منه أن يستعين برئيسه الذي ينظر في الأوراق، وقد ناولتهما دعوة المهرجان، وسألاني عن مدة بقائي في أمريكا، فأخبرتهما أنني سأبقى وقت الدعوة فحسب، وهو أسبوع. لم يأمرني مثل من هم

قبلي بوضع سبابتي على جهاز البصمات ثم يختم جوازي، بل قادني إلى غرفة داخلية للأمن الداخلي، ووضع جوازي وأوراقي بعهدة أربعة موظفين، كانت الغرفة متوسطة الحجم، فيها مقاعد للمراجعين، بقيت مدة ثلاث ساعات، أرى المسافرين يدخلون ويصوَّت على أسمائهم وتختم جوازاتهم بانسياب، بعد ساعتين من القلق، وبعد أن خرج جميع من في القاعة من المسافرين، وبقيت وحدي، حمل موظف زنجي جوازي الأخضر، وحين بدأ يتهجّى اسمي قمت فوراً نحوه، ناولني ورقة طلب مني تعبئتها، تشتمل على معلومات عن أبي وأمي وأعمارهما ومكان ولادتهما وعنوان سكن كل منهما، وما إذا كانا حيّين أم لا؟ قمت بتعبئة الورقة، وحين سلّمتها إليه، قلّبها وقال: أكمل الجهة الثانية. أكملت البيانات كلها، جهة عملي ومكانه وعنوانه. حين عدت إلى المقعد سمعت رجلاً يسألني: أكانت رحلتُك على الطيران الفرنسي؟ أجبت نعم، قال ما اسمك؟ وحين أخبرته قال إن حقيبتي في الدور السفلي، لم يبقَ سواها.

ماذا أفعل؟ وهؤلاء يحتجزونني بهذه الطريقة الهمجية؟ ناولت الموظف الورقة بعد أن أكملتها، فقال لي ببرود: اجلس. جلست وكدت أسقط من الإعياء، بينما كان هو يثرثر مع موظف زنجي آخر نحيل بجواره، ثم وضع ورقتي وجوازي جانباً، وتناول جواز مسافر دخل اللحظة وبدأ ينهي إجراءاته، اللعنة لِمَ يفعل ذلك؟ لا أعرف. أخذ جواز المسافر الأوروبي الشاب، وأشار إليه

أن يتبعه، وأخبره بأن ينزل إلى الطابق السفلي، قاطعته، وقد ظننت أنه سيخرج: حقيبتي في الأسفل، هل أحضرها إلى هنا أم ستعود وتنهي إجراءاتي؟ قال: لا تقلق لن أخرج! عاد من جديد إلى الكاونتر، وبدأ يُلقي النِكات على صديقيه المجاورين، ثم رنّ هاتفه وأجاب وهو يضحك بصخب، ففهمت أنه يحادث زوجته أو عشيقته. أقفل الخط، وقام من على الكرسي، وأوثق حقيبة ظهر ضخمة خلف ظهره، تشبه حقائب المحاربين أو مغامري الغابات، ووضع جوازي أمام زميله الزنجي النحيل، مشيراً إليه بأن يكمل إجراءاتي، مضى وأنا أشيع حقيبة ظهره الضخمة من دون أن يعيرني أي انتباه ولا أسف، فعلاً أنا الآن «لا أحد» اللعنة عليك جوستاين غاردر، كيف تنبأت لي بذلك.

نادى الموظف النحيل على اسمي، أو بالأحرى أشار إليَّ بيده أن آتي، فلا أحد في القاعة سواي، وكاميرا في الناحية اليسرى مسلّطة عليَّ. قمت وبدأ يسألني عن المعلومات التي قمت بتعبئتها في الورقة، التي ضاعت في ما أظن، أو لعل الشرطي الذي مضى رمى بها في المزبلة تحت قدميه، كنت قد وصلت إلى درجة الإعياء والبكاء، انهمرت كسيل على الموظف الذي كان متماسكاً ومبتسماً، قلت له: إنني كاتب. سأل: ماذا تكتب؟ قلت: روايات. سأل عن اسم أمي وأبي وولادتهما وعنوانيهما، ووظيفتي، وحين ذكرت له أنني أعمل في وزارة البترول. ضحك وقال: يفترض أن تكون رجلاً ثرياً! ضحكت وقلت: آمل ذلك. عبس بوجهه لوهلةٍ أمام شاشة الكمبيوتر

وقال، يبدو أن النظام تعطل! هجست بأن النظام معطَّل منذ بدأت البشرية، وأعاد طلب المعلومات من جديد، حيث أقف أمام منصته العالية، وأكاد أترنح وأسقط من شدة الإعياء والتعب، وما أن أنهى ذلك حتى ختم على الجواز، وعلى ورقة خارجية صغيرة قام بشكها ضمن أوراق الجواز، خرجت وأنا ألعن العالم الذي لا يوجد فيه مكان واحد يحترم الإنسان، بل لا يوجد فيه متر مربع فحسب. فاجأني الرجل الأسمر الذي أخبرني بحقيبتي الوحيدة، وهو يهبط معي السلم الكهربائي، ويقول في ما يشبه الاعتذار والنقمة: أعرف آذوك وعطّلوك.. فقط لأنك عربي! أوضحت: ربما لأنني سعودي أيضاً. عند سير العفش المطفأ في صالة خالية تماماً من القادمين، وجدت حقيبتي وحدها فقط تنتظرني. سحبتها، وسألني إن كنت أريد سيارة تاكسي؟ قلت: أظن ذلك، فلن ينتظرني منظمو المهرجان أكثر من ثلاث ساعات. حين وقفت أمام الشرطي الذي يدقق بالجوازات المختومة، نظر قليلاً في جوازي، وأراه الشرطي الذي يقف بجواره، ثم قررا أن يسلما الجواز لشرطي آخر يقف عند كاونتر، قال أحدهما: اتبعني! ما الذي يحدث بحق السماء؟

وقفت أمام شرطي، وانهرت معترفاً له.

كل ما فعلته أنني تلقيت دعوة للمشاركة بمهرجان للأدب العالمي، وها أنا ذا جئت. نظر نحوي وقال لي بلهجة آمرة: انتظر على بعد خطوات. تراجعت وأنا أسحب حقيبتي حزيناً ومهدوداً.

تذكرت أهلي، وقلت لا بدّ من أن الاتصال قبل ثلاث ساعات كان من زوجتي في الرياض، أخرجت الجوال ونظرت إلى الوقت فكانت الواحدة والربع ليلاً في الرياض، حاولت أن أتصل لكن كانت إشارة أبراج الاتصال مفقودة، ففوجئت بصوت عربي ذي لهجة مصرية: لو سمحت ممنوع الموبايل! نظرت أمامي فكان الشرطي الذي يتفحص جوازي مصرياً، ابتسم وقد رأى دهشتي، وأشار: تفضل. تقدمت نحوه وأنا أشرح له بالعربية: لا بدّ من أن أهلي قلقين، وأريد أن أطمئنهم. قال ممكن تعطيني الرقم وأنا أتصل لك من هنا. شكرته وأنا أقول: أتمنى ألا أبقى أطول من ذلك. سألني: هل أنت كاتب. أجبت نعم. قال: ماذا تكتب؟ قلت: قصصاً وروايات وأول كتبي مطبوعة في مصر. ضحك وقال: لم افترضت أنني من مصر؟! قلت: من لهجتك. ناولني الجواز وقال: بالسلامة.

خرجت وحاولت أن أتصل من هاتفي المحمول من دون فائدة، كانت تظهر لي رسالة صوتية تعتذر عن خطأ ما، فأرسلت رسالة، ثم جاء صوت زوجتي ممازحاً: يعني من يسافر أمريكا لا يكلم أحداً؟ قلت: بل حدث لي فصل غريب، يتفق مع تشاؤمك. سردت لها الحادثة فقالت: المهم الآن نفذت من المطار؟ أجبت موافقاً.

لم أجد أحداً في انتظاري، فمن انتظرني قد يبقى ساعة كاملة على الأكثر، ثم سيمضي، سيقول للمنظمين: «إنه لم يأتِ!».

وقد يقول آخرون: «هم العرب فوضويون ولا يحترمون مواعيدهم!»، من دون أن يظن أحدهم أنني كنت محتجزاً بطريقة التجاهل! كأنني لا أحد!

خرجتُ وأخذت سيارة أجرةٍ مع رجل جنوب أفريقي، قال لي إن عنوان فندق ذا جورج سميث ليس في نيويورك بل في منهاتن، وهذا يعني أجرة أعلى، نظراً إلى بُعد المسافة وزحام الطريق. قلت له: لا عليك، سأدفع لك ما تريد! كان رأسي يشبه بالوناً مليئاً بالماء، كلما مالت السيارة ارتجَّ الماء، فارتبكت الطريق أمامي. تلك الطريق المزدحمة، حيث المنفذ من نيويورك إلى منهاتن يشبه دودة أم أربع وأربعين، فالسيارات متشابكة بطريقة أدارت ما تبقى في رأسي من صحو، وناطحات السحاب مثل جنّيات يضحكن بصخب ويتمايلن.

دهشتي أن الشوارع الضيّقة، ذات العشرين متراً، التي تقع عليها بيوتنا السكنية في الرياض، إنما تمتد عليها شامخةً ناطحاتُ سحابٍ حتى تتعانق في الأعلى كأشجار، فلا أرى في الأعلى سوى سماءٍ ضيِّقة، يتسلل منها مطر خفيف، اضطُررت معه إلى شراء مظلة رخيصة، كعادتي، حيث أرميها بأقرب نفاية حين تخلع الريح قماشها الرديء، وأظل أمشي في طرقات نيويورك مأخوذاً بالفوضى فيها، متذكِّراً رواية «في بلاد الأشياء الأخيرة» لبول أوستر، حين قرأتها قبل خمسة عشر عاماً، وأصابتني بصدمة كبيرة، فما هي

تلك المدينة التي يكتب عنها هذا الأمريكي الذي يسكن بروكلين؟ هل هي نيويورك؟ أم الرياض؟ لا أعرف كيف رأيت الفوضى الهائلة وهي تطوف في الطرقات، السيارات المنطلقة بتهوّر، الوقوف في أماكن ممنوعة، الشتائم والغيظ الذي يتلبس السائقين، وهي الأشياء التي لم أرها مطلقاً في أوروبا، خصوصاً في بريطانيا، البلاد التي لا تعرف الفوضى أبداً، وهو ربما الأمر الذي قد يجعل جماهير الكرة الإنكليز الأكثر شغباً في الملاعب، فقداسة النظام والدقة، تخلق سخطاً يترصد أول ضوء للتمرد.

اليوم الثاني
نعم قرأت لكتَّاب يهود!

كان يومي حافلاً، بعد سهرة الافتتاح تعرفت إلى نور الدين فرح، الذي قال لي إنه قبيل لحظات كان يحدِّثُ روائياً إسبانيا، وروائيةً فرنسيةً عن روايتي «فخاخ الرائحة»، إذ كان مأخوذاً بها، وقد كتب مقتطفاً جميلاً على غلافها. شكرته بلطف، فقد كان ودوداً سهل الحديث، يتنقل بخفة بين المشاركين، على عكس إمبرتو إيكو الذي ما إن جاء حتى جلس وحيداً على كرسي، بيده كأس نبيذ أحمر، كأنما الشهرة والمال تغيِّر الناس، لدرجة أن تجعلهم وحيدين وحزينين أيضاً. صافحتُه ورحب بحرارة ولطف ودماثة إيطالية، وأخبرته أن القرّاء العرب أحبوا روايته «اسم الوردة»، وابتسم بفرح، وقلت له إنني أحببت حوار الشاعرة جمانة حداد معه، فقد كان رائعاً ومعرّفاً بثقافة إيكو ووعيه ورؤيته إلى الحياة.

في المحاضرة الأولى في معهد سرفانتس كنت مع ثلاثة روائيين، أمريكي وبوليفي وفرنسي، كل منهم تحدث عن مدينته، وتحدثت بدوري عن الرياض، وعن أسرارها، ثم قمت بتوقيع نسخ من روايتي المنشورة بالإنكليزية، وكان بين ممن وقعت لهم مخرج سينمائي أردني يعيش في إيطاليا، يقول إنه عمل مع أبرز رموز السينما في إيطاليا مثل فدريكو فلييني، وسألني إن كانت روايتي تحوّلت إلى السينما، قلت له لا، وقال إنه يتمنى أن يقوم بذلك، سواء مع هذه الرواية أم مع غيرها من رواياتي، أو مع إحدى قصصي، فهو يقرأ بالعربية.

تحدثت معه على عجلٍ، ودوَّن لي بريده الإلكتروني، وركبت السيارة الخاصة كي تتجه بي إلى «نيويورك تايمز»، حيث محاضرتي الثانية مع البريطاني أيان مكيوان، والكاتب المسرحي الكيني بينيافانجا واينانيا، أدهشتني طريقة تعامل المنظمين مع الروائيين، وكما لو كانوا نجوماً، ففي الجلسة الأولى أجلسونا في غرفة انتظار في الكواليس خلف المسرح، ثم خرجنا في الوقت المحدد إلى الجمهور، كان عدده قليلاً يصل إلى خمسين متفرجاً، على الرغم من أن هذه الجلسة «الحياة السرية للمدن»، كان الدخول إليها متاحاً مجاناً، بخلاف الجلسة التالية بمشاركة مكيوان الذي أدركت حجم جماهيريته في الجلسة ذاتها، فقد كان المسرح مكتظاً، وقد أطفئت الأنوار على الجمهور، بينما سُلّطت الأضواء علينا، طلبت إلينا إحدى المُنظّمات أن ندخل قبل فتح

الأبواب للجمهور، ثم جرّبنا أجهزة الصوت المركّبة في جيوبنا، بعد ذلك عدنا إلى غرفة الانتظار المزوّدة بشاشة صغيرة، نُشاهد فيها دخول الجمهور، والمقاعد تمتلئ بالتدريج، ثم قادتنا المّنظّمة بطريقة خاصة، حيث يتقدّمنا المقدم أو المحاور، ثم مكيوان ثم الكيني وأنا، وسط تصفيق الجمهور الحاشد، للوهلة الأولى أحسست بارتباك، خصوصاً أنني أمام جمهور حاشد، ويتكلم بلغة غير لغتي، سارت الأمور بشكل إيجابي لصالحي، سألني عن نظرتي إلى الأدب الأمريكي، وتحدثت عن طفولتي مع همنغواي وشتاينبك، ثم تعرُّفي إلى فوكنر الذي لم أفهم روايته «الصخب والعنف»، التي ترجمها جبرا إبراهيم جبرا، ثم أحببتها في ما بعد، بعد أن أوقعني فوكنر في الشغف بأعماله عبر رائعته القصصية «وردة من أجل إميلي»، كنت أشعر بنظرات مكيوان، ولا أعرف هل كانت نظرة إعجاب أم شفقة، بعد ذلك تحدثت عن أثر الشعراء الأمريكان في الشعر العربي الحديث، مثل والتمان وغينسبيرغ، خصوصاً في رائعته الشعرية «عواء».

كنت قد تحدثت إلى المقدم في غرفة الانتظار حين سألني عما إذا كانت تلك زيارتي الأولى، وأجبت نعم، فسألني عن انطباعي عن أمريكا، فأخبرته إن أولى الصدمات حدثت لي في المطار، بعد أن تمَّ تحويلي من أكشاك موظفي الجوازات، إلى الأمن الداخلي، حيث قادني شرطي أمريكي ضخم الجثة، وهو يقول لي هناك بعض المعلومات يجب أن تدلي بها. ثم أبقوني أكثر من ثلاث ساعات،

دونما تهمة، ودونما أسئلة أيضاً. أخبرت المُقدِّم أنهم ختموا على جوازي أخيراً، فسألته لِمَ كل هذه الإجراءات؟! قال لي: لأنها زيارتك الأولى، لكن الزيارة الثانية لن تبقى سوى ثلاث دقائق، قلت له إنني أخشى أن تكون هذه الزيارة الأولى والأخيرة! راقت الفكرة للمقدم وقد أخبرني إن مكيوان قد تعرض إلى ما يشبه ذلك قبل ثلاث سنوات، ثم سألني المُقَدِّم أمام الجمهور الحاشد عما حدث لي، فسردت القصة، وفوجئت بعد الندوة أن عددًا من القرّاء والقارئات الذين وقَّعت لهم روايتي يعتذرون بلطف وأسف، كما لو كانوا هم من أساء إليَّ، بل إن كهلاً بنظارتين سميكتين أعتذر بشدة عما حدث لي، وهو يقول: ثق تماماً أن لك أصدقاء وقرّاء هنا في أمريكا، فعليك أن تأتي مراراً.

سارت الأمور بشكل جيد في ندوتي تلك، حتى جاء دور الأسئلة، وبعد أكثر من سؤال عام، قام أحد الشباب وسألني ما إذا كان للكتّاب الأمريكان من أصل يهودي أثرٌ في الكتَّاب العرب، وفيكَ أيضاً، وهل تجدُ حرجاً في قراءة هذا الأدب. كان سؤالاً ملغوماً، وهو يطرح في مكان عام بأمريكا على كاتب عربي، ليس سؤالاً أدبياً حتماً، بل قد يحمل بُعداً سياسياً أيضاً. أجبته: أنني لا أكترث بأصل الكاتب ما إذا كان يهودياً أم عربياً، فهناك أدب جيد وأدب رديء، وما يهمّني هو الأدب الجيد فحسب، بصرف النظر عن منتجه. وما إن أكملت الجملة حتى ضجت القاعة بالتصفيق، لم تكن إجابتي تلك تزلفاً للغرب، بقدر ما تحمل رؤيتي تجاه الأدب الإنساني في

العالم، حيث لا ينكر أحدنا أثر عدد من الكتّاب اليهود على حركة الإبداع في العالم، مثل غينسبيرغ وكافكا وفيليب روث... إلخ.

كانت فرصة ثمينة حقاً أن أصطاد جمهور أيان مكيوان، حينما أجلسوني إلى جواره في حفل التوقيع على روايتي، بينما هو يوقع على مجمل رواياته، وحين جلسنا سألني مكيوان، عما إذا كان عندنا في السعودية مثل هذا التقليد من التوقيع على الكتب، أجبته أن ذلك يحدث في معارض الكتب عادة، وفي نهاية حفل التوقيع كان جون، محرِّري في بنغوين، يربت على كتفي، وهو يحتفي بي مجدداً، كأنما يشعر أن نجاحي هو نجاحه أيضاً. سرد عليَّ أنشطتي ومواعيدي في الغد، بما في ذلك زيارة إلى مقر بنغوين، ومن ثم رحلة جديدة في الحوارات، مع راديو التحرير، وهو ناطق بالإنكليزية ويتوجه إلى المجتمع العربي والإسلامي، ثم سألني جون، كيف ستعود إلى الفندق، قلت لا أعرف، ثم لمحت مكيوان وحارس بوابة مبنى التايمز يحمل المظلة فوقه حماية من مطر خفيف بدأ يتساقط، أشار مكيوان بيده نحوي: أن تعال، فاقتربت معه تحت المظلة، وذهبنا معاً إلى الفندق، بينما واصل مُقَدِّم الندوة طريقه، بصحبة سيدة، إلى وسط المدينة.

حين دخلنا المصعد كان مكيوان يسألني عن رأيي بالرواية في العالم، وضغط على الدور السادس عشر، بينما ضغطت على الدور الرابع، قال لي هل تذهب معي إلى مركز المهرجان في

الدور السادس عشر لنرى ماذا هنالك، وافقت، وهناك لم نجد سوى سيدتين سوداوين تستقبلان الضيوف، شربنا وأكلنا بشكل غير كافٍ، قال إنه جائع، واقترح أن يدعوني إلى عشاء في مطعم الفندق، وافقت وذهبنا معاً، كان طِوال الوقت يسأل عن الحياة في السعودية، وأسأله بدوري، عن الأدب الحديث في بريطانيا، والأسماء الجديدة هناك، قلت له ونحن ننتظر المصعد في الدور السادس عشر، من هم كتّابك المفضلون؟ سأل: الأحياء فقط أم جميعهم؟ قلت له ممازحاً: بل كل كتّابك على أن تختار خمسة فقط، أو أقل طبعاً، قال لي: جيمس جويس وتولستوي! ثم صمت، وسألني وأنت؟ عدَّدت له بعضهم، وحين ذكرت اسم ساراماغو، قال لي: لا أحبه. في المطعم سألته لِمَ لا تحب ساراماغو؟ قال إنه غير حميم، كتابته غير واقعية! قلت هل تعني أنها متخيلة؟ أجاب: لا، لا أقصد ذلك، فالخيال مطلب مهم في الرواية، لكنه غير حميم، لا تستمتع وأنت تقرأه. قلت له: ماذا إذاً عن موراكامي، فكتابته أثيرة وحميمة لدى القارئ. قال لي نعم كتابته أثيرة لدى القارئ لكنني لا أحبه أيضاً، ابني الشاب يحب قراءته، لكنني خلاف ذلك، فسألته: لِمَ؟ قال إن كتابته من النوع الخفيف السهل، لا تحمل عمقاً.

حين جلسنا حول طاولة صغيرة، وقبل أن نتفحّص قائمة المأكولات، جاء رجل وامرأة وصافحاه، ثم قدّمني إليهما، وطلب منهما أن يجلسا معنا، لكن الرجل اعتذر، وقال إن معهم مرافقاً بسيارة تنتظر في الخارج، بعد أن جلسنا قال لي مكيوان، هذا كاتب

لديه رواية جميلة، فسألته من أي بلد هو؟ أجاب: من إسرائيل! صمتُّ وجِلاً لوهلة، ثم سألته هل يكتب بالإنكليزية مباشرة أم بالعبرية؟ قال: بل بالعبرية، ويترجم إلى الإنكليزية. كنت قبل المهرجان بيومين قد تصفحت موقع القلم، الجهة المنظمة للمهرجان، وقد نشر في الصفحة الأولى للموقع قائمة طويلة بالأسماء المشاركة من كل بلدان العالم، وصورهم وسير موجزة عنهم، كنت مع الياس خوري، ونور الدين فرح، من العرب المشاركين، على الرغم من أن فرح يرى أنه كاتب أفريقي أكثر من كونه عربياً. ومن بين القائمة تنبّهت إلى كاتبين إسرائيليين ضمن المدعوين، أحياناً أفكر ككاتب عربي، وكما يحدث غالباً، هل عليّ أن أرفض المشاركة بأي مهرجان يتضمن حضوراً إسرائيلياً؟ كما حدث فعلاً بمعرض الكتاب في باريس؟ هل بالضرورة أن يكون الكاتب محسوباً على الحكومة الصهيونية مثلاً؟ هل بالضرورة هو مع ما يحدث من قتل وتهجير لمئات آلاف الفلسطينيين في فلسطين؟ بل حتى لو كان كذلك، أليس من المهم أن يكون ثمة صوت عربي هناك؟ هل نتهرّب من الحضور، وفرض كلمتنا وثقافتنا بسببهم؟ هكذا أجد الأمر، عليَّ أن أكون موجوداً بقوة في أي مكان من العالم، طالما أنني أقدّم صوتي الخاص، ورؤيتي الخاصة، تجاه ما يحدث في كل مكان.

تحدث مكيوان طويلاً عن المسلمين في أوروبا، خصوصاً في بريطانيا وفرنسا، قال إنهم في بريطانيا بلغوا مليوناً ونصف

نسمة، وأقاموا مسجداً يتسع لأكثر من أربعة آلاف مصلٍ، أشار إلى أنهم سيغيّرون خريطة أوروبا إذا لم يوقف عملهم وأنشطتهم، أجبته بأن ذلك موقف عنصري، قال هذا ما يحدث بالضبط حينما يتحدث وأصدقاؤه الليبراليون عن هذا الوضع، يتم اتهامهم فوراً بالعنصرية، خصوصاً أن الثقافة الغربية تمنح حقوق الإنسان، ومن بينها حق المعتقد وممارسته، تحدّثت عن موقف الطلاب السعوديين في مدينة نورج عام 1999م، حينما طالبوا مدرسة «بل سكول» بفتح فصل خاص لزوجاتهم، بحيث يتم تعليمهن منفردات، بمعزل عن الطلاب، سألني: هل رفضوا؟ يقصد المدرسة، قلت له: لا، لم يرفضوا. سألني: ماذا كنت تعمل في «نورج»؟ أجبته أنني كنت أتعلَّم اللغة الإنكليزية في الصباح، وفي المساء كنت أدرس الفوتوغراف. قال لي إنه يحب «نورج» وقد درس فيها بعد الجامعة دراسة أكاديمية تختص بالكتابة الإبداعية، رويت له كيف أحببت قصة هشام مطر قبل أن يطبع روايته «في بلاد الرجال»، وقد غادر إلى نورج لتعلم الكتابة الإبداعية.

قلت له: بالمناسبة كيف وجدت رواية «في بلاد الرجال»، أجاب: إنها رائعة، وأحببتها أكثر لأن طفولتي كانت في ليبيا مع والدي الذي يعمل في الجيش البريطاني هناك، كان مكيوان هناك منذ السادسة حتى بلغ الثانية عشرة، قلت له لديك إذاً طفولة مؤثرة في العالم العربي، أجاب: لا، كنت أدرس في مدرسة للطلاب الإنكليز والأمريكان... استطرد قائلاً، هل تعرف أن برنامج دراسة

الكتابة الإبداعية في جامعة «إست آنجليا» في «نورج» كان من أوائل هذا النوع من الدراسة في العالم، ثم سرد لي كيف التحق به كأول طالب في البرنامج عام 1970م. تحدّثنا عن أسرتينا، وأخبرني أنه تزوج مرتين، يحب زوجته الثانية التي ارتبط بها منذ عشر سنوات، وهي صحافية في جريدة «الغارديان»، ولديه ولدان في العشرين، كان يتحدث عنهما بحنان بالغ، ثم ضحك على نفسه، وقال إنني أتحدث عنهما كأب مخلص، ثم أضاف، أنه عندهم للأسف يخرج الولد من البيت حين يبلغ العشرين بحجة أنه حر، ويجب أن يعيش حراً مستقلاً عن والديه... لكنه مطمئنٌ إلى مستقبلهما، فأحدهما أنهى دراسته الجامعية، والآخر ما زال يدرس، ويحب فتاة برازيلية.

كانت سهرة ممتعة مع مكيوان، بدا سعيداً للغاية، وكنت بدوري أشعر بالسعادة لأني أحاور من هو في مثل تجربته، وقد أسفت له لأن أعماله لم تترجم إلى العربية، بحسب معلوماتي، وتحدث عن مشروع دبي للترجمة، وقد حدّثوه عن رغبتهم في ترجمة أحد أعماله.

حين تحدثنا عن الترجمة، قال إن هناك كثيراً من الأعمال التي تُترجم إلى الإنكليزية يتم تحسينها، أجبته ذلك يحدث باسم تحرير النص، وهو قد يكون إيجابياً، وقد يكون غير ذلك، وأضفت أن كاتباً مثل هشام مطر أراه محظوظاً وهو يكتب بالإنكليزية مباشرة، ما يمنحه فرصة التعامل مع المحرر مباشرة من دون

المترجم كوسيط، فالتحرير على المخطوطة بلغتها الأصل أفضل بكثير من التحرير على مخطوطة الترجمة. وافقني، ثم سألني عمن يترجم من الإنكليزية إلى العربية، ذكرت له أنني أستطيع أن أذكر أسماء مهمة جداً ممن يترجم من الإسبانية، صالح علماني مثلاً، أو من الإيطالية، مثل أحمد الصمعي، أو من الفرنسية، مثل بسام حجار، أما الإنكليزية فهناك تجارب هنا وهناك، لكنها ليست أسماء لامعة مثل هؤلاء، قلت له إن القارئ العربي حينما يجد اسم صالح علماني على رواية مترجمة يقتنيها فوراً، بصرف النظر عن اسم الكاتب.

سألني هل أحببت «نورج»؟ قلت له: حتماً، أجاب أنه أيضاً أحبها. قلت له إنها مدينة صغيرة وآمنة، يسهل العيش فيها، قال لي أين سكنت هناك؟ تحدثت قليلاً عن «بوثوب»، أقصى شمال المدينة، التي سكنت فيها أربعة أشهر، ثم منطقة «إيتون» التي عشت فيها ما تبقى، ثم أخبرته أنني خلال الأعوام الثلاثة زرت «نورج» أكثر من مرة، كلما تسنى لي ذلك، لأهرب من منظمي أي مهرجان من لندن، ألتقط القطار وأسير إلى مدينتي الصغيرة «نورج».

لم أكن أعرف وقت ذاك أن ثمّة رواية مترجمة لمكيوان، وهي روايته «أمستردام»، التي نال عليها جائزة بوكرمان البريطانية، فقد عثرتُ عليها في موقع «النيل والفرات» لبيع الكتب، وأخبرته في

رسالة إلكترونية، فأجابني إنه لا يعلم عنها شيئاً للأسف. تذكّرت تصريحات الكولومبي ماركيز، حينما صرح في حوار أنه يعرف كل ترجماته في العالم، ويستلم حقوقه كلها، إلا في العالم العربي.

أكد لي مكيوان في رسالة إلكترونية، أنه يتمنّى أن أقرأها بالعربية، وأخبره عن مستوى الترجمة فيها، فقمت بأمر شراء نسخة من الموقع، وبعد عشرة أيام استلمت النسخة، الصادرة عن دار المدى السورية، قرأتُها على مدى أربعة أيام، ثم كتبت له أن الترجمة متوسطة، ليست متميزة، لكنها ليست سيّئة.

والغريب أنني عثرت أيضاً في مكتبة صغيرة قرب ميدان طلعت حرب في القاهرة، على نسخة مترجمة لرواية «شاطئ سيشل» لمكيوان، وهي من أواخر أعماله آنذاك، لكن المترجمة قامت بتغيير عنوان الرواية إلى «فلورانس وإدوارد»، نسبة إلى اسمي الشخصيتين المحوريتين في العمل، ولكن الترجمة، بكل أمانة، كانت جيدة، أما الأمر غير الجيد، فهو ما تقوم به معظم دور النشر العربية من الترجمة من دون التعاقد مع المؤلف الأجنبي، أو دار النشر مالكة الحقوق، أو وكيل أعماله، وهذا الأمر مضر إلى حدٍ كبير، ولعل أبسط الأمور أن المترجم لا يستطيع أن يتواصل مع المؤلف لسؤاله عن كلمة، أو عبارة قد لا تكون واضحة، فيجتهد بطريقة قد تضرّ النص، وتقلب المعنى. فمن خلال تجربتي مع المترجمين، لا بدَّ من أن تنشأ علاقة جيدة بين المؤلف والمترجم

لشعورهما بأن العمل هو نتاجٌ جماعي، يضمهما إلى جانب المحرر أيضًا.

اليوم الثالث
مذيعة سعودية في أمريكا

كان يومي الثالث مريحاً شيئاً ما، كان السائق ينتظرني في الواحدة والنصف ظهراً، ركبت معه وسألته إن كان هو الذي سيقلني إلى بنغوين، كان سمعه ضعيفاً، فأطلعني على نموذج طلب المشوار معه، وقرأت اسمي في أعلى الطلب، حين وصلتُ اتصل بمسؤولة التنسيق، انتظرتها قليلاً في مدخل البناية الضخمة، وقد ظللت أتأملُ لوحاتٍ مجسّمةً للفن الأمريكي الحديث، جاءت «غابريلا» ضاحكة ومعتذرة، سألتني إن كنت أود أن أقابل «جون» أم لا، قلت لا أعرف، هل لدينا وقت كاف. أجابت أخشى من مفاجآت حركة المرور، هذا الوقت تحديداً في نيويورك صعب التكهّن بشأنه. رنَّ هاتفها وأجابت على المتصل، وهي تقول إن غداً في الرابعة سيكون جيداً للقائه في الفندق، وهي تنظر نحوي، وقبل أن تقفل الخط، ناولتني هاتفها المحمول: هذا صلاح عواد، صحفي عراقي من جريدة «الشرق الأوسط»، يودُّ إجراء حوار معك. تحدثت معه، كان

ودوداً ومزّاحاً كما هي عادة العراقيين، وقال إن صاموئيل شمعون يبلغك تحياته وهو هنا في أمريكا، ولكن في ولاية بعيدة، اتفقنا على الرابعة غداً في الفندق، أثناء ذلك أقبل جون وصافحني، حيث كان خارجاً، ثم انضم ستيفن، كبير المحررين، في بنغوين، واقترحت غابريلا بأن نذهب تحسباً لأي طارئ قد يؤخرنا عن اللقاء الإذاعي مع راديو التحرير، وهو أصوات مجتمع العرب والمسلمين هنا في أمريكا، وفي العالم، وصلنا هناك باكراً، فقالت «غابي» هل تود أن تشرب أو تأكل شيئاً، أم نجتاز الشارع وننتظر على ضفة النهر لدقائق حتى يحين الموعد؟ وأشارت إلى البناية المجاورة للنهر، التي توجد فيها إذاعة دبليو بي إى آي «WBAI»، شرحت لي أن هذا النهر يفصل بين نيويورك ونيوجيرسي، وقالت إنها نيويورك أجزاء متلاصقة، نيويورك ونيوجيرسي ومنهاتن وبروكلين، قلت لها إنني أعرف كتّاباً يسكنون بروكلين، مثل بول أوستر ونيكول كراوس وغيرهما، قالت إنها تعدُّ الأقل كلفة في السكن والمعيشة، وهي أيضاً تقيم فيها، ومعظم من يعملون في نيويورك ومنهاتن يقيمون في بروكلين، ويتخذون قطارات الأنفاق للوصول إلى أعمالهم، فالتذكرة الشهرية لاستخدام القطارات تبلغ ثمانين دولاراً. تحدثت «غابي» كلمات عربية قليلة مكسّرة، وقد أخبرتني أنها التحقت بدورة تعليم اللغة العربية، لمدة ستة أشهر، ثم صرفت سنتين حتى الآن بطريقة التعلم الذاتي، وذلك بتعلم الكلمات من القرآن الكريم، المزدوج اللغة، حيث المقارنة بين النص العربي

والنص الإنكليزي. لا أعرف سر الاهتمام بالعربية في أنحاء العالم مؤخّراً، هل هو بسبب أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر؟ أم بسبب تكاثر أعداد المسلمين في العالم الغربي وفرض ثقافتهم وعاداتهم؟ أم بسبب العنصرية التي قد تعانيها الأقليات المسلمة في العالم؟ أم هي كل هذه الأسباب؟

حين دخلنا مبنى الإذاعة كان هناك رجال أمن طلبوا هوياتنا، ناولت أحدهم جواز السفر، وسجل بعض المعلومات، ثم منحني من جهازٍ أمامه بطاقة دخول، تشبه بطاقات دخول السيارات في المواقف الخاصة. كانت هناك سيدة شقراء تنتظرنا، فاصطحبتنا إلى الدور السادس عشر في بناية من خمسة وعشرين طابقاً، كانت المذيعة، سارة ملائكة، باستقبالنا، وهي تتحدثُ بطلاقةٍ متناهية وسريعة، لم أكن لحظة ذاك أعرف ما إذا كانت تتحدث العربية أم لا، لكنها فجأةً تحدثت بلهجةٍ مصرية، قالت لي: لا تقلق، فالحوار سيكون مسجّلاً، ونستطيع معالجة التوقفات والأخطاء عبر المونتاج. دخلنا نحن الأربعة إلى الاستوديو، وكان مغطّى بمادة بيضاء، جلستُ أمام الميكرفون، وجلست هي أمامي، حاولت أن تختبر الصوت، وجرَّبت سمّاعات الرأس، لكنها لم تعمل، فخرجت تبحث عن مهندس الصوت، جاء فعالج الخلل، قالت لي مبتسمةً: هل تستطيع أن تخمن من أين أنا؟ قلت: طبعاً. التفتت نحو «غابي»، وسألتها هل أخبرتِه؟ قلنا بصوت واحد: لا. ثم أضفتُ: أكاد أجزم بأنك مصرية! ضحكت وقالت: بسبب اللهجة يمكن؟ قلت نعم،

والشكل أيضاً. أجابت: لا طبعاً، لست مصرية، أنا من جدة، تخيَّل، لكن مولودة هنا في أمريكا، طبعاً أبي سعودي، وأمي كذلك. كانت مفاجأة مثيرة. سألَت إن كنتُ أودُّ قراءة مقطع باللغة العربية من الرواية، بحيث يقرأ شخص آخر المقطع ذاته من النسخة الإنكليزية، وافقت، واخترتُ المقطع من نسختي العربية، ولم تعثر عليه في الرواية، فحددتُ لها المقطع في نهاية الرواية تقريباً. بدأتُ القراءة العربية، ثم شرعنا بالحوار الذي استهلك ما يقارب النصف ساعة.

خرجنا ووجدنا السائق ينتظرنا، صعدت معه وحدي، وأوصلني إلى مكان قريب من الفندق، قال لي إن انعطافه من جهة اليمين يجبره على السير في طريق طويلة مختلفة عن طريقه، قلت له: لا بأس، نزلت ومشيت خطوات قليلةً فوجدت نورالدين فرح واقفاً في سلّم درج سفلي يقود إلى بابٍ قديم موصد، ربما يُفضي إلى قبو مهجور. أَشار بيده نحوي، سلّمت عليه، وقد نبَّهني إلى مصورة عجوز أمريكية اسمها مريام بيركلي كانت منهمكة بالتقاط الصور له، اعتذرت وكدت أمضي، لكنها استوقفتني، واستأذنت أن تلتقط صوراً لي، بعد أن ناولتني بطاقة عمل خاصة بها، على ظهرها صور عدد من مشاهير الأدب، انتظرت، ثم التقطت لي صورة مع نورالدين قبل أن يمضي، ثم استلمتني بصور متنوعة، بعضها بورتريه، وبعضها بروفايل، كانت منهمكة بعجلةٍ، خشية أن تكون قد عطَّلتني، حتى شعرت بضيقي، فأطلعتني على صوري في شاشة

الكاميرا الرقمية الصغيرة، قالت إنها ستكون مسرورةً إن أخبرتُ وكيلي الأدبي وناشري الخاص بهذه الصور، ومنحتهما عنوانها وهاتفها، كي تبيع الصور لهما وتحتفظ بحقها المعنوي والمالي، سألتها: وهل يحق لي أن أحصل على بعضها، قالت لي: ممكن أن أرسل لك واحدة، لكن أرجو أن تكون للاستخدام العائلي فقط! قلت لها إنني لا أضمن ذلك، فالصحافة العربية والناشرون العرب لا يحفظون هذه الحقوق نهائياً، بل حتى الحق المعنوي كتسجيل اسم المصوّر أسفل الصورة لا يهتمون به! تأففت المصوِّرة قليلاً، وقالت: هذا لا يهم، المهم عند نشر صورك في العالم، يجب أن تتنبه إلى حقوق الآخرين.

حاولتُ في الفندق أن أنام قليلاً، فلم أستطع، لكنني تمددت على السرير، ورحت أقرأ بمجلة المهرجان، كانت لدي دعوة لحضور حفل في معهد سرفانتس، على شرف ماريو باراغاس يوسا، سرت على الأقدام، حيث مقر الحفل قريب من فندق ذا جورج سميث، فقط عليَّ أن أعبر شارعين قاطعين، وبعد فندق ماريوت أنعطف يميناً، وأسير نحو المعهد. دخلت وكان أمامي في المدخل يوسا بقامته الفارعة، لم أكن متأكداً إن كان هو أم لا، على الرغم من أنه محاطٌ بالضيوف والكاميرات، سألتُ «كارو»، إحدى منظّمات المهرجان، قالت نعم إنه هو، صافحته وعرَّفتُ بنفسي، وسألني هل تتوافر أعمالي بالعربية، قلت له طبعاً، وهي ترجمات مختلفة ومتباينة. لم يكن يوسا ودوداً بالشكل الذي كان عليه إمبرتو إيكو،

وهما لم يكونا بحجم بساطة أيان مكيوان ودماثته. حين تحدثت مع إيكو عن روايته «اسم الوردة» وأهميتها لدى القرّاء العرب، قال لي متحمساً: هناك ترجمتان، الأولى في تونس وهي الترجمة الجيدة، أما الأخرى في بيروت فهي رديئة، قلت له طبعاً، ومعظم القرّاء حصلوا على الترجمة الأولى التي قام بها أحمد الصمعي، على الرغم من أنها أقل انتشاراً، لكنها توافرت أحياناً في نسخ مصوَّرة، كما حدث ذلك معي، حين جلبت نسخة مصوَّرة من الرواية من البحرين.

كنت قد استغربت معرفة إيكو بحال الترجمتين إلى العربية، فلم أكن أظن أن كاتباً إيطالياً بقامة إيكو، تُرجمت أعماله إلى معظم لغات العالم، سينظر في أمر ترجمة كتبه إلى العربية.

أعلن مكبّر الصوت عن كلمة بارغاس يوسا، فتجمهر الكتَّاب المدعوون حوله، وقف بشموخ وتحدث بلغة إنكليزية ركيكة، اعتذر عن رداءة لغته في نهاية الكلمة، التي تحدث بها عن معهد سرفانتس، وأهمية هذا الاسم في التجربة الروائية في العالم، وأكد أن هذا اللقاء فرصة رائعة للحوار بين هذا العدد الكبير من الكتَّاب للنقاش حول أوضاع العالم المتردية، وكذلك الحديث بشؤون الأدب والكتابة، والأحوال السياسية الراهنة، والنظر إلى مستقبل مشرق للإنسان في العالم. حين انتهت الكلمة وبدأت لحظات تصوير كثير من الأدباء والكتَّاب مع بعضهم البعض، ومع

الروائيين الكبار همس في أذني الروائي الفرنسي إدوارد فالدمان: الجميع هنا يبحث عن النجوم، ليست الكاميرات فحسب، بل حتى الكتّاب أيضاً!

وصل جون متأخراً، كان يتحدث مع روائي أمريكي شاب ثرثار، حين يتكلم لا يتوقف إلا بعارض شديد، سألني جون عن انطباعي عن هذا الحفل، قلت له إنه كان جيداً، لكنني عادة أَمَلُّ من هذه الأجواء المزدحمة، لذلك تجدُني أحياناً أبحث عن مكان هادئ قليلاً، جاء شاب أمريكي بصحبة شاعرة كورية تقيم في بوسطن، وتعمل مساعدة بروفيسور في جامعة ماساشوستس بوسطن، قال الشاب إنه عليَّ أن آتي مراراً إلى أمريكا، لكنني استغربت لهجته كثيراً، فلم تكن سهلة أبداً، لدرجة أنني ظننت أنه ليس أمريكياً، فقال إنه من جورجيا، من غرب الولايات، وتحدثتُ مع الشاعرة الكورية التي تعمل مدربةً في الكتابة الإبداعية للشعر في كوريا، واستشهدت بالشعر الياباني كثيراً، وقالت إنها تحب ثلاثةً ممن كتبوا قصيدة الهايكو اليابانية: أليسا، وإبسو، وماشو.

في المساء خرجت مع جون وستيفن وكاتبة صومالية تتكلم الفرنسية، وشخص آخر معها، ذهبنا بالتاكسي إلى مطعم يوناني، تحدث معي جون حول روايتي الجديدة، وسأل ستيفن عن حال النشر باللغة العربية، وكيف هو وضعي مع ناشري العربي. تحدثنا طويلاً عن الكتابة وطبيعتها، واستعرضنا عدداً من الأعمال الروائية

الجديدة في العالم، سألني جون ما إذا كنت قد قرأت «في بلاد الرجال» لهشام مطر، قلت له نعم، سأل هل تُرجمت إلى العربية، أجبته بنعم، قال إنه لم يحبها، فهي تتناول موضوعاً سياسياً مكرراً، قلت له إنني أرى خلاف ذلك، فلا تهم جِدَّة الموضوع كثيراً، بقدر ما يهم طريقة التناول، وأسلوب الكتابة، فهو تناول القمع السياسي للمعارضة الليبية بطريقةٍ إنسانيةٍ رائعة، خصوصاً أنها جاءت عبر ذاكرة الطفولة.

اليوم الرابع

«وجيهة» في المعهد الفرنسي

كان هذا الصباحُ هادئاً، غيماتٌ صغيرة هابطة تكنس الشوارع، طالعتُ صوب ناطحات السحاب في الجهة المقابلة لشارع لكسينغتون أفينيو، لعل ما يثير الدهشة في هذه المدينة أن ناطحاتِ السحاب واقفةٌ بصمود في كل أنحاء نيويورك، حتى في الشوارع الضيقة، التي قد لا تحتمل البنايات العالية، فعرض شارع لكسينغتون لا يتجاوز العشرين متراً، كما هي شوارع الحارات في الرياض، لكن ليس ثمة تشريعات تحدد البنايات بطابقين، كما في الرياض، وإنما تتفاوت البنايات بطوابق متعددة.

ليس لديَّ الكثير لأقوم به اليوم، لديَّ جلسة واحدة فقط، تقيمها منظمة ذا هب (The Hub)، أي منظمة المحور، وهي عبارة عن مجتمع تفاعلي عن حقوق الإنسان في كل أنحاء العالم. كانت الجلسة ستقام في المعهد الفرنسي، وقد حاولتُ الاعتذار

عنها قبل يوم، لكن جون قال إن عليَّ أن أفعل ذلك، خصوصاً أن اسمي مدرجٌ في البرنامج، وفي مجلة المهرجان، فالوقت متأخرٌ جداً للاعتذار. رنَّ هاتف الغرفة، ونزلت، عند مكتب الاستقبال، فوجدت موظفات من لجنة المهرجان، ومعهن شاب من بورما، لكنه من مواليد نيويورك، يدعى ثانت مينت يو، سيشارك معي في الجلسة ذاتها، انطلق بنا التاكسي إلى مقر المعهد الفرنسي، وتعرفت هناك إلى سيناريست وكاتبة مسرحية صربية تدعى بيليانا، ستشارك معنا في الجلسة ذاتها، كما التقيت لأول مرة بالروائي الأمريكي من أصل نيجيري أوزودينما، مؤلف رواية «وحوش بلا وطن»، الفائزة بجائزة «لولين ريس» كأفضل عمل أدبي أمريكي للأدباء الشباب، وقد تحدث بإعجاب عن روايتي «فخاخ الرائحة»، وهو الذي كتب مقتطفاً عنها نُشر على غلافها. استأذنته قبل بدء الندوة، ودّعني وأخبرني أنه جاء ليتعرَّف إليَّ، على أن نلتقي، ولفترة أطول، بعد يومين في محاضرتنا في بوسطن. مدير الجلسة اسمه سمير بادارينا، وله ملامح عربية، لكنه لم ينطق أي كلمة عربية، ولم أسأله بدوري، قال في غرفة الانتظار إنهم سيعرضون عدداً من أفلام الفيديو كليب القصيرة، عن كل بلد من البلدان الثلاثة، وفوجئت أنهم حصلوا من موقع «يوتيوب» في الإنترنت على مقطع قصير للسيدة وجيهة الحويدر، وهي تقود سيارتها في إحدى المناطق الزراعية، وتتحدث لمناسبة يوم المرأة العالمي عن ضرورة حصول المرأة السعودية على حقها بقيادة السيارة،

وتذكِّر الحكومة بأنها كتبت مع زميلات لها خطاباً قبل أشهر، طلبن فيه السماح لهن بقيادة السيارة، ووعدن فيه بأنهن يتبرّعن بتدريب النساء الراغبات في قيادة سياراتهن، كونهن يحملن رخص قيادة دولية.

بعد المقطع سألني سمير ما رأيك؟ تنهَّدت، وصمتُّ لوهلة، ثم ابتسمت. ذكرت له أن قيادة المرأة للسيارة مطلب مهم، لكنه بسيط وعادي، وأعتقد أنه سيأتي يوم قريب تقود فيه السعوديات سياراتهن بأنفسهن، ذلك الأمر سيخفف على الأسر السعودية تلك الضغوطات الاقتصادية التي تعانيها بسبب غلاء المعيشة، وذلك بالتخلّص من تكدّس سائقي العائلات الأجانب، وعلى الرغم من ذلك أرى أنه مطلب هامشي قياساً إلى ارتفاع نسب البطالة لدى النساء في السعودية، وعدم توافر فرص عمل عادلة للمرأة أسوة بالرجل، إضافة إلى عدم توافر مقاعد دراسة كافية للبنات في مرحلة التعليم الجامعي. سألني: هل لذلك تأثير في أعمالك؟ أي انعدام معظم حقوق المرأة في بلادك؟ ذكرت له أن هناك فصلاً في روايتي «القارورة» عن حدث مشابه، وهو المظاهرة الشهيرة لنساء سعوديات يقدن سياراتهن في الرياض غداة حرب الخليج الثانية، إضافة إلى معاناة الشخصية الرئيسة في الرواية من ضغوط المجتمع الذكوري على حياتها الخاصة.

سألني: كيف ترى أثر التكنولوجيا في الدفاع عن حقوق الإنسان؟ ألا تعتقد أن مجرد مقطع صغير مثل هذا يستطيع أن

يصل إلى العالم أكثر من رواية مثلا؟ أجبته هذا صحيح، لكنه تأثير عابر، وهو مجرد كلام عابر، لكن الرواية تعمل على مثل هذه القضايا بشكل عميق، كما أنها تصل إلى مختلف أنحاء العالم عبر الترجمات، وافقني وانصرف بالحديث إلى الذين معي.

لم أحب هذه الجلسة، لم يكن الحضور متفاعلاً بشكل جيد، ربما لأنه مساء يوم السبت، وهو يوم إجازة، أو ربما لأن الموضوع مكرر وليس مشوقاً مثلاً. خرجنا إلى قاعة الاستقبال في الأعلى، ووجدنا طاولة بثلاثة مقاعد، وقمت بالتوقيع على روايتي أيضاً للمرة الثالثة.

عدت مع الشاب البورمي إلى الفندق مشياً، فهو يعرف نيويورك جيداً، وسألته إن كان يفكر بأن يعيش فيها، قال إنها جيدة من جوانب، وسيئة من أخرى، فمن جانب المكتبات والأفلام والمسرح والثقافة المتجددة هي رائعة، لكنها مزدحمة وملأى بالصخب والضجيج، إضافة إلى أن كلفة العيش فيها مرتفعة للغاية، استأذن ليدخل في مكتبة على الطريق، وأكملت الطريق وحدي إلى الفندق، ومررت بمطعم وكافيه الحجر الأحمر «Red Stone Pisseria Cafe» وطلبت ساندويتش دجاج مع قهوة سوداء، كانت الساندويتش سيئة وليست طازجة، فاضطررت أن أقضمها وألوكها في فمي بصعوبة، إذ كنت جائعاً جداً.

دلفت إلى غرفتي، وكان أمامي ربع ساعة قبيل الرابعة عصراً، موعدي مع صلاح عواد، الصحفي العراقي من جريدة

«الشرق الأوسط»، أرسلتُ إلى زوجتي طالباً أن تتصل بي، تحدثتُ معها، وقد كانت عائدة مع طفلتيَّ من حفل افتتاح مهرجان الطفل، كانت مبتهجة وصوتها كان عذباً، قالت إنها رأت اسمي ضمن الذين سيوقّعون على كتبهم المخصَّصة للأطفال حالما أعود، وقد التقت لأول مرة ببعض الزميلات المهتمات بأدب الطفل. لو كان الأمر بيدي لما شاركت في أي نشاط في البلاد، ربما بسبب شعوري إنها مُشَاركات بلا جدوى، لكنها كانت تدفعني باستمرار إلى أن أكون حاضراً في الداخل، وتحرّضني لأن أقبل المشاركة بأمسية هنا، وندوة هناك، بل إنها ترى أن وجودي في فاعليات الداخل أهم من الخارج!

قابلت الصحفي صلاح عواد، وانتقلنا من ركن الاستقبال إلى الدور السادس عشر، حيث غرفة مخصصة لحوارات المهرجان، قال لي إنه أجرى بالأمس حواراً مع الصومالي نور الدين فرح، الذي أشاد بروايتي «فخاخ الرائحة» في الحوار، ثم اعتذر صلاح أنه لم يقرأ لي، فهو مقيم في نيويورك منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، وليس من السهل العثور على الكتب العربية، وقال إنه يتمنى أن يحاور إمبرتو إيكو، خصوصاً رائعته الأخيرة The Mysterious Flame of Queen Loane، التي كانت عن رجل يفقد ذاكرته ولم يعد يعرف زوجته، ولا أولاده، لكنه يتذكّر الكتب القديمة كلها، حيث كان سابقاً بائع كتب، قلت له إن إمبرتو كان موجوداً البارحة في حفل الاستقبال، وقد حاوره بعض الصحفيين، لكن صلاح أشار إلى أنه لا يريد المحاورات السريعة الواقفة، بل حواراً متمهلاً طويلاً.

بعد أن انتهينا من الحوار، قال إنه يتمنى أن يحصل على نسخة عربية من أي من رواياتي، قلت له إن لديَّ نسختين من «فخاخ الرائحة» و«نزهة الدلفين»، وأعطيته نسخة من كل منهما، ثم ودّعته، وفتحت بريدي الإلكتروني على شاشة كمبيوتر الاستقبال، ولم أجد سوى رسائل غير عاجلة، إما ممن يطلب إجراء حوار، أو ممن أجرى حواراً من قبل، ويرغب بصور شخصية خاصة بصحيفته.

اليوم الخامس
هل وضعت يدك في يد رشدي؟

صحوت هذا الصباح مريضاً، قلت لنفسي: اللعنة، ماذا سأفعل في يومي الأخير في نيويورك، وقد تدلّى ما يسمونه لسان الموت، اللسان الصغير في أقصى حنجرتي، وقد أصبح رخواً حتى يكاد يسد أنفاسي، قمت مبكراً جداً رغماً عني، فكرت بأن أطلب طبيباً، لكنني قلت سأقاوم، وسأتناول حبة بنادول، ثم أتناول إفطاري مبكراً على غير العادة.

بينما كنت في الحمام أستحم، رن هاتفي المحمول بإلحاح، في المرة الثانية خرجت عارياً وخائفاً لئلا يكون أحداً من أهلي، زوجتي أو أمي أو أطفالي، لكنه كان رقماً مجهولاً، عدت وأكملت مع رنين ملحّ وغير طبيعي، كان الرقم ذاته، وبعدها أرسل إليّ رسالة، يقول إنه محمد الفهيد، صحفي بجريدة «الوطن»، أجبته برسالة بأنني في نيويورك، هل ثمة أمر عاجل؟ أجاب في رسالة: أحتاج إلى محادثتك لدقائق. بعدها رنَّ جوالي من جديد، وكان رقماً من الإمارات، قلت لنفسي لا بد من أن ثمة أمراً مهماً، فرددت وقدّم نفسه بأنه المسؤول عن موقع القصة من أبو ظبي أو دبي، لا أتذكر،

وأخبرني أن كثيراً من الصحف والمواقع العربية تهاجمني وبلدي، كوني قبلت دعوة المهرجان الموجهة إليَّ من قبل البريطاني سلمان رشدي، إذ كيف يقبل كاتب سعودي من بلاد الحرمين دعوة ممن أساء إلى الإسلام في روايته «آيات شيطانية»؟

ابتسمت، وقلت إذاً هذا هو الأمر مع هذه الاتصالات الغريبة هذا الصباح، طلب أن أجيب ولو سريعاً عن موقفي مما يحدث، أجبته بأنه مهرجان عالمي يضم أصواتاً من العالم، هذه الأصوات متنوعة من حيث الثقافة والمعتقد واللغة، وهي فرصة جيدة للحوار بين هؤلاء، والحوار لا يعني ضرورة توافق الآراء، بل يجب أن تتباين الآراء وتتنوع وتختلف، وهي فرصة لفهم الآخر، ألسنا في بلادنا نتحدث دائماً عن الحوار مع الآخر؟ ألم يدعو أهم شخص في السلطة السياسية في بلدي، وأعني الملك نفسه إلى ضرورة الحوار بين أتباع الأديان؟ قال لي إنه عُرِف عنك صراحتك، فهل تلقيت دعوة شخصية من سلمان رشدي؟ قلت بل هي دعوة للحضور إلى مهرجان الأدب العالمي، وسلمان رشدي أحد رموز الأدب العالمي الحديث سواء أردنا أم أبينا، وقبل أن ينهي المكالمة بيننا، قال كما لو كان يقرأ عنواناً: إذاً المحيميد لم يضع يده في يد رشدي! ضحكت وقلت له أنا لم أقل ذلك، حاول أن تنشر ما قلت من دون أن تجتهد.

ثم اتصل الفهيد، صحفيُّ «الوطن»، وسألني في ما يشبه الدهشة، هل أنت في نيويورك فعلاً؟ أجبته نعم، وأضفت ستسأل

حتماً عن تلقّي دعوة من سلمان رشدي، أليس كذلك؟ ضحك، وقال نعم، أريد أن أحصل على تصريح منك لو سمحت. أجبته هو مهرجان للأدب العالمي، والدعوة من رئيس المهرجان السيد لويس بروس، ورشدي أيضاً رئيساً فخرياً للمهرجان، ومعه آخرون، قال لكن هذا الكاتب هو صاحب «آيات شيطانية». كنت أدرك أنه لا يعرف ولم يقرأ شيئاً لرشدي، وربما لم يقرأ لي أيضاً، وقد تأكد لي ذلك جين سأل عن الرواية التي ترجمت إلى الإنكليزية، فأخبرته أنها «فخاخ الرائحة»، ولم يفهم الاسم من أول مرة، إلا بعد أن أعدته مراراً، ما جعلني أدرك أنه لم يقرأ لي شيئاً، أو حتى شيئاً مكتوباً عنّي، مع أن الأمر لا يحتاج إلا إلى ضغط زر في موقع بحث «غوغل».

بعد دقائق أعاد الاتصال، وكان وجلاً ومرتبكاً، وهو يقول إنني أردت أن أخبرك أمراً خطراً، يا إلهي، ما الذي يحدث لي هذا الصباح، صعوبة تنفسي بسبب ارتخاء لسان الموت، واتصالات تحذيرية، وصداع متهتك، وانقباض في صدري: خير إن شاء الله يا عزيزي! أجاب: هناك أمر قد يضرك يا أستاذ؟ ثم أضاف: في موقعك الرسمي خبر يفيد بأنك قد استلمت دعوة من رشدي. قلت له نعم استلمت دعوة من رشدي ولويس بروس، موقعة منهما، وهي صيغة جاهزة مرسلة لأكثر من خمسين روائياً من كل بلدان العالم. أحياناً أسأل نفسي، هل هؤلاء مرعبون ومصابون بوسواس قهري؟ أم أنني مغامر، وربما متهوّر؟ قلت له كي أنهي الحوار سأجلس مع

أيٍّ كان، بهدف التحاور وتفهم وجهات النظر، وجلوسي مع أي أحد، حتى معك، لا يعني قبولي وجهات نظرك، ولا يعني قبولك وجهات نظري.

اعتذرت منه لأنني تأخرت عن الموعد الذي نظمه لي وكيلي الأدبي مع المصورة الفوتوغرافية نينا، خرجت عجلاً من الفندق، وصعدت أول سيارة تاكسي عند الإشارة، وأمليت عليه العنوان: 526 غرب 26، فانطلقنا إلى منطقة تشيلسي، وقفت في مدخل العمارة حيث قائمة بأسماء عدد هائل من استديوهات الغاليري، أشار إليّ حارس العمارة الهندي بيده، أن تفضل، من دون أن يوقف مكالمته بالمحمول، أريته الرقم 1010 وتحرك المصعد ببطء شديد، ثم انعطفت يساراً في ممر طويل، معظم أبوابه مغلقة بسبب يوم الأحد، وجدت باب الاستوديو مفتوحاً، طرقت الباب ودخلت، فوجدت سيدة في الخمسين تقريباً، بشعر أشقر ونظارتين طبيتين، صافحتني وجلست، لم أتوقع أن يكون الاستوديو بهذه الرحابة البديعة، كانت في ذهني صورة نمطية عن استديوهات الرياض، مكان قاتم ومظلم، وغرفة معتمة، لكن هنا في تشلسي، كان الاستوديو بواجهة زجاجية كاملة طولها قد يصل إلى عشرة أمتار، تطل على نهر هدسن، تأمّلت النهر البديع والصباح المشمس، سألتني إن كنت أريد قهوة أو شاياً أو ماء، أجبت قهوة سوداء، وفي الداخل جاء صوتها متسائلاً: سكَّر؟ أجبت: من دون سكَّر لو سمحتِ. ظللت أطوف داخل الاستوديو، وأتأمّل صور

الكتّاب والفنانين معلّقة بطريقة رائعة، لمحت صورة الياس خوري بالأسود والأبيض، ناولتني القهوة، وأشارت: هو كاتب عربي، حتماً تعرفه؟ قلت نعم: روائي لبناني، وكلانا مع وكيل أدبي واحد، أعني السيد توم. قالت: وأنت ألست لبنانيا؟ قلت: لا، أنا من السعودية. تساءلت: ولا تقيم في لبنان؟ قلت: بل أقيم في الرياض.

لعل إشارة مجلة المهرجان أمام اسمي إلى بلدين معاً: السعودية، لبنان. هو ما جعل البعض يعتقد أنني أتنقل بين هذين البلدين، كما هو مكتوب أيضاً أمام اسم الياس: لبنان، الولايات المتحدة. رتبت الاستوديو، وحددت المكان بجوار النافذة الزجاجية الضخمة. بعدما التقطت لي صوراً كثيرة، قالت إنها تحب العمل بالكاميرات الفلمية، ولا تحب الكاميرات الرقمية، كانت تضع فيلماً وراء الآخر، ثم دخلت فتاة فارعة الطول، وذات سحنة تشبه سكان أوروبا الشرقية، كانت مساعدة المصورة نينا، بعدما أنهينا الجزء الأول من التصوير، قالت نينا سنخرج الآن إلى الشارع المجاور، وأخذت عدداً من الصور بأوضاع مختلفة، بينما مساعدتها الشابة تحمل العوازل الفضية والذهبية والبيضاء، ترفعها لتحمي وجهي من أشعة الشمس، شعرت بالإعياء من الوقوف الطويل، ففهمت نينا ذلك، وقالت فقط نغير المكان ثم نلتقط آخر ثلاث صور، مضينا إلى الناحية الثانية من الشارع، أمام باب العمارة، وأكملت صورها الأخيرة.

أقلتني بسيارتها المتهالكة، وسألت إن كنت أريد الذهاب إلى الفندق، أم إلى مكتبة نيويورك العامة مباشرة، فسألت عن الوقت، وقالت إنها الثالثة، قلت لا بأس بالذهاب إلى الفندق، فأمامي ساعة كاملة، أخذتني إلى هناك، ودخلت الفندق على عجل، غسلت وجهي، ونزلت ثانية فوجدت الروائية الأمريكية آني برولكس، أو كما عرفت نفسها لي: آني برو. وعرّفتُ بنفسي، فقالت إنها استطاعت تخمين ذلك، أي إنني عربي من السعودية. ركبت معنا سيدة فرنسية تُدعى كاثرين ميليت، صاحبة كتاب «الحياة الجنسية لكاثرين إم»، وهو كتاب مذكرات عن حياتها الجنسية، وهو ما أدعت أنه الكتاب الذي غيّر حياتها، كانت تقول ذلك بسخرية، أضحكت الجمهور، لكنها تود أن تشير إليه، والغريب أن مشاركاتها في المهرجان كلها عن الجنس: كتابة الجنس، مناقشة الحياة الجنسية لكاثرين، وهذه الجلسة معنا حيث ستدخل عنوة كتابها المذكور. وصلنا إلى مكتبة نيويورك العامة، وهبطنا ثلاثتنا من مدخل جانبي كانت تقف ثلاث سيدات باستقبالنا عند المدخل، سرن أمامنا، ثم دخلنا باحة، ثم صعدنا سُلّماً صغيراً، حين أصبحنا في غرفة الانتظار المجهّزة بالقهوة والمشروبات الغازية وبعض المعجنات، دخل السيد بول هولد نغرابز، مدير الجلسة، وهو يفيض بالحيوية والابتسامة والنكتة السريعة، كان يقول إنه يريد أن تكون جلسته حميمة وبسيطة، بحيث يمكن أن يتداخل أحدنا مع بعضنا الآخر، بعد ذلك انضم إلينا الإسباني أنطونيو مولينا، مؤلف إحدى عشرة

رواية، والفرنسي فيليب غريمبيرت، ولديه روايات عدة بالفرنسية، بدأ نشرها منذ عام 2001م.

سارت الجلسة بشكل رائع وتلقائي، تحدث الجميع عن الكتب التي غيّرت حياتهم، أشار الإسباني أنطونيو إلى كتاب علمي مهم حقاً، وهو عن مملكة النمل، وأشار إلى أنه اهتم مؤخراً بالكتب العلمية، ويقرأها أكثر مما يقرأ في الأدب، بينما رفض الفرنسي فيليب الإشارة إلى كتاب غيّر حياته، وقال إنها أوركسترا من الكتب، في حين تحدثت آني برو عن مجموعة كتب، واهتمت بكتاب النمل الذي أشار إليه أنطونيو، وسألني بول إن كنت أتفق مع فيليب في كتب الأوركسترا، خصوصاً أنني أجبت إيميله بأنني اخترت عشرة كتب قبل أن يراسلني، ثم اضطررت لأن أختار خمسة منها، وأخيراً اختزلتها إلى ثلاثة، تحدثت عن ثلاث مراحل من حياتي، طفولتي مع الأساطير والحكايات الشعبية، وقدّمت مثالاً على ذلك كتاب: «ألف ليلة وليلة»، ثم مرحلة المراهقة وشغف الشعر العربي الذي أكسبني خبرة قادتني إلى شعر الهايكو، وأخيراً في مطلع العشرينات كانت رواية «زوربا الإغريقي» كازانتزاكي، وأكدتُ أن التأثير في الحياة هو تأثير مرحلي وجزئي، وذكرت أن الكتب لا تغير الإنسان بشكل قطعي، من اتجاه إلى آخر، بل هي تبني حياته بشكل تدريجي.

كانت سيدة من موظفات المكتبة العامة تجلس في الصف الأمامي أمامنا مباشرة، معها لافتات تحديد الوقت، إذ كل فينة

تستبدل لافتة الوقت الموجّهة صوبنا، أو بالأحرى صوب مدير الجلسة كي يضبط الوقت، فمرة تمسك ورقة مكتوب عليها: 10 دقائق، ثم 5 دقائق، ثم الوقت انتهى، ليتيح الفرصة لنقاش الجمهور الذي لم يكن نقاشاً طويلاً. بعدما هبطنا من المنصة اتجهنا إلى طاولات على اليمين أُعدّت لحفل التوقيع، لثلاثة منا فقط، آني برو، وكاثرين، وأنا. طلب مني معدو الحفل التوقيع على كل النسخ، فقمت بذلك، ثم نهضت مصافحاً جون كي نخرج، فاعترضني الكاتب الأمريكي جوشوا فورست، الذي شاركني جلسة «الحياة السرية للمدن»، وقد ناولني نسخة من روايتي كي أوقعها له.

خرجت مع جون إلى حديقة خضراء رائعة، تمدد فيها الناس في طقس ربيعي خلاب، قال لي جون، لو جئت صيفاً إلى هذه الحديقة، لرأيت هناك بين العمارتين الشاهقتين شاشة سينما تعرض فيها أفلام مجانية، وهي غالباً أفلام قديمة، لكن المتعة تأتي أن الجمهور يتمدد باسترخاء في الحديقة. سألني جون عن رأيي بالمهرجان، وقد أنهيت الجزء المتعلّق بمدينة نيويورك، قلت إنه كان رائعاً بكل المقاييس، على الرغم من الضغط المذهل عليَّ، فلم أجد وقتاً كي أقوم بالتسكع والصعلكة، أجاب ضاحكاً، الآن يمكنك أن تفعل ذلك، سأتركك بعد قليل فاذهب كما تشاء، هذه الطريق التي تقع عليها المكتبة العامة يقودك إلى تايمز سكوير، وهو مكان مهم يقصده السياح عادةً، وفي الجهة المعاكسة تعود

بك الطريق إلى جادة لوكسينغون، حيث يقع فندق جورج سميث الذي تقيم فيه.

جون شاب نشط وحيوي، كان يعمل في دار آنكور بوكس للنشر، ثم انتقل إلى دار بنغوين منذ سنة تقريباً، لا يدخن ولا يحمل جهاز هاتف نقال، ويسكن في شقة صغيرة ليس فيها جهاز كمبيوتر، ولم يتزوج بعد، ضحكت، وقلت له: ماذا تفعل إذاً كل هذا الوقت في شقة لا يوجد فيها كمبيوتر، وأخشى أنه لا يتوافر فيها تلفزيون أيضاً؟ فأجاب بأنه يريد أن يحمي وقته من كل شيء، ينصرف إلى القراءة فحسب.

ودّعته، وذهبت وحدي إلى تايمز سكوير، كان الشارع مزدحماً، فاليوم هو الأحد، كان باعة الأرصفة منتشرين بطريقة مبالغ بها، رسامو الرصيف الصينيون منهمكون برسم بورتريهات للجالسين أمامهم، جماعات المراهقين يسيرون بصخب، والشمس توشك على المغيب، اجتزت الشارع في طريق العودة، وقبل أن أنعطف يساراً ناحية تايمز سكوير، أوقفني رسام صيني قائلاً: بورتريه بخمسة دولارات فقط، كان بجواره خمسة فنانين منهمكين، جلست أمامه كي أستريح مقابل خمسة دولارات، وانهمك بالرسم، كان بجواري امرأة أفريقية ورجل يحيط عنقها بذراعه، وهما يضحكان أمام ريشة الفنان، كانت كل فينة تنظر في لوحة الذي يرسمني، ثم همست لي، وأشارت بإبهامها: أنها رائعة. انتهى الرسام وأراني

اللوحة، كانت جميلة على الرغم من الفروق القليلة في الملامح، حرك إصبعه على جزء من اللوحة، وهو يريني أنها قد تنطمس ما لم توضع في إطار حماية، سحب واحداً من الإطارات البلاستيكية الرخيصة، واقترح أن يحفظ به اللوحة، وقال إن ثمنه خمسة عشر دولاراً، قلت له: افعل، وقد أدركت أنها إحدى الخدع التي يتقنها باعة الأرصفة. ناولته عشرين دولاراً، ومضيت تجاه تايمز سكوير.

كانت تلك الناحية مزدحمة جداً، هائلة الضجيج، ناطحات السحاب مزدانة بلوحات نيون ضخمة، أمريكان وأجانب وسيّاح، بيض وملونين، حصان ضخم تقف خلفه عربة ملكية معروض للتأجير، عائلة أفريقية مكوّنة من أب وأم وأولاد وبنات يبلغ مجموعهم ثمانية أفراد يعزفون ويغنون، ويستقبلون بضعة سنتات من المارة، وهي إحدى طرق التسول المحترمة في العالم، إذ تشبه طريقة عازفي الغيتار والساكسيفون في محطات الأندرغرواند في لندن.

عدت مشياً إلى الفندق، بعد أن مررت بمدخل محطة مترو، قلت لنفسي سأرى ما أريد كلما مشيت، عدت من الطريق ذاتها، واجتزت مكتبة نيويورك العامة، رأيت مطعم ماكدونالدز في الجهة المقابلة، قلت لن أجتاز الطريق صوبه، على الرغم من شعوري بجوع يلتهم أطرافي، فمطاعم ماكدونالدز ومقاهي ستاربكس في أمريكا مثل محال التموينات الصغيرة، ومحال «أبو ريالين»

في الرياض، يمكن أن تجدها أينما أدرت وجهك. قبيل الفندق مررت بمطعم ماكدونالدز، دخلت وطلبت برغر دجاج وكأس شاي، وضعت المحاسبة السمراء البرغر داخل كيس، فقلت لها: عفواً سآكل هنا، مشيراً إلى الطابق العلوي مكان طاولات الجلوس، قالت إنه مغلق للتحسينات، واعتذرت مني، فمضيت. كانت لوحة الفندق الطولية الخضراء مضيئة، بينما معظم المحال المجاورة قد أغلقت أبوابها، بينما مقهى الحجر الأحمر لم يزل مفتوحاً.

دخلت غرفتي، وأكلت داخلها لأول مرة، فلم يكن هناك وقت كافٍ لآكل من جهة، ولعدم وجودي في الفندق معظم الوقت من جهةٍ أخرى. أدرت جهاز التلفزيون لأول مرة، وتمددت على السرير وأنا أتنفس الصعداء: غداً إذاً سأسافر إلى بوسطن لليلة واحدة، بعدها سأطير إلى باريس، فالرياض.

اليوم السادس

السفر إلى بوسطن

فتحت إيميلي من مكتب الاستقبال، ثمَّة إيميل من جمل القحطاني، وهو طالب سعودي يرغب في معرفة موعد محاضرتي بجامعة هارفرد، ويشير في رسالته إلى أن سلمان رشدي، قد ألقى محاضرة في الولاية التي يدرس فيها، وتحدث عن المهرجان العالمي للأدب. كما قرأت إيميلاً من خالد المصري وضع فيه رقم هاتفه للاحتياط، أجبتهما مباشرة، وصعدت إلى الغرفة كي أتهيأ للسفر إلى بوسطن. رتبت حقائبي ونزلت إلى مكتب الاستقبال، ثم أنهيت أمور سكني التي كانت مرتبة من قبل منظمي المهرجان، سألت عن نور الدين إذا ما زال في غرفته؟ أجابني أنه لم يخرج بعد، وطلبته على الهاتف، فقال إنه سينزل حالاً. أقبل رجل بشعر كثيف بين الشقرة والبياض، كان مبتسماً حين صافحني، وسأل إن كنت سأذهب إلى محطة بن للقطار، قلت نعم لكنني أنتظر زميلي نور الدين، ابتسم مرة أخرى، وهو يسند حقيبته إلى الجدار، أنهى

الرجل الأشقر إجراءاته في اللحظة التي نزل فيها نور عجِلاً، وأقبل نحوي فبادرته: صباح الخير بالعربية، لكنه أجاب بالإنكليزية، كنت نسيت أن أسأل صلاح عواد الذي قابله إن كان يتكلم العربية أم لا، لكنني سأسأله حتماً، فرحلتنا طويلة إلى بوسطن، تقترب من الساعات الأربع، خرجنا ثلاثتنا قبيل الحادية عشرة بدقائق، ولم نجد التاكسي المتفق معه من قبل، فتوقف أمام الفندق تاكسي يقوده رجل أسمر، يبدو أنه أفريقي، فحملنا حقائبنا في صندوق الأمتعة الخلفي للتاكسي، ركب الأشقر من الباب جهة الفندق، والتففنا أنا ونور من الباب جهة الشارع، ركبت، وسأل نور سائق التاكسي إن أمكن أن يركب أماماً، حين تحركت السيارة سأله الأفريقي: من أين؟ أجاب نور: من الصومال؟ فقال السائق الشاب بالعربية: كيف الحال؟ أجاب نور: بخير. قال السائق: أنا كمال من السودان، ثم بدأ يتحدث مع نور بالعربية، ويسأله عن أولاده، عددهم، وأين يقيمون، وماذا يعملون، وهو ما وظيفته... إلخ. كان الرجل الأشقر يضبط كاميرته تجاه نور وهو يدعوه إلى أن ينتبه لأجل الصورة.

سألني الرجل الأشقر إن كان لدي نسخة من روايتي، قلت: لا للأسف! قال إنه سيجدها حتماً في أي مكتبة، وسيقتنيها. شكرته من دون أن أسأل عن اسمه وماذا يعمل؟ حين وصلنا المحطة كان الرجل الأشقر سيسافر إلى مدينة أخرى، وسأله نور: إن كانت تذكرته معه؟ قال نعم، ثم ودّع نور باحتضانه، وودّعني. ذهبنا إلى

كاونتر التذاكر، ووقفنا في الطابور الطويل المتعرّج، قال نور: مايكل صديق رائع. هززت رأسي موافقاً. سألني: هل أعطيته نسخة من روايتك؟ قلت له: سألني لكن للأسف لم يكن معي أيّ نسخة! تأفف نور قليلاً، ثم سأل: هل تعرّفت إليه؟ قلت: لا، لم أعرفه. أجاب هذا اسمه مايكل مور ألم تسمع عن رواية «المريض الإنكليزي». شهقت مصدوماً: طبعاً الرواية واسعة الانتشار، والفيلم أيضاً، قرأتها ولم أشاهد الفيلم بعد. أجاب: هذا صاحبها. اللعنة لم أستطع التخلّص من عادة لامبالاتي تجاه الآخرين، خصوصاً الذين أقابلهم لأول مرة، كم فقدت أصدقاء محتملين بسبب طريقتي غير الودودة في اللقاء الأول!

بينما نحن في الطابور، سألني نور إن كان السعوديون يشعرون بالفخر أن أعمالي تترجم إلى لغات مختلفة؟ قلت له بعضهم نعم، وبعضهم الآخر ربما لا، ثم تذكّرت ما حدث لي صباح الأمس من اتهامات بسبب مجيئي بدعوة من سلمان رشدي، فحكيت له ما حدث! ضحك وقال لي: هل تعرف أنهم يعتبرونني عدواً للإسلام لأنني صديق رشدي؟ قلت ضاحكاً: أخشى أن ينالني شيء من ذلك، فأنت قلت عن روايتي، وعلى غلافها «هذه رواية لا تقاوم»، فحتماً هذه الكلمة جاءت من صديق رشدي! قال للأسف هذا ما يحدث لدى العرب! سألته: هل قرأت رواية رشدي «آيات شيطانية»؟ أجاب نعم، وهي رواية ضعيفة فنياً، لا يمكن مقارنتها بروايته المهمة «أطفال منتصف الليل». سألته، هل ترى فيها ما

يُسيء إلى الإسلام؟ قال هي رواية بطلها شخص نائم ويحلم، يرى أشياء كثيرة ومتنوعة.

وصلنا إلى الموظف، فاستلمنا التذاكر مدفوعة الثمن من قبل المهرجان، ثم تحرّكنا تجاه لوحة المدن، وكانت رحلة بوسطن في الموعد، الثانية عشرة وثلاث دقائق، قال نورالدين: قد نجد مايكل، فرحلته لم يُعلن عنها. تلفّت نورالدين، ثم وجده مع الجمع المتجمهر حول اللوحة الإلكترونية الضخمة، التي تُضيء بوجهات الرحلات ومواعيدها، صافحناه واعتذرت منه أنني لم أتعرَّف إليه قبل قليل، ولم أستقبله كما يجب. أجاب مبتسماً بلطف: لا عليك يا صديقي. أخرجَ مايكل كاميرته وناولها نورالدين، ووقفنا معاً، ثم صورتهما معاً، بعدها أخرجت الكاميرا وفعلت مثله. قال له نورالدين معتذراً نيابة عنّي: يوسف ليس لديه نسخة من الرواية، لكن سيبعثها إليك حتماً. تناول مايكل ورقة صفراء صغيرة من حقيبته اليدوية، وكتب لي عنوانه في كندا، وناولته بطاقة عنواني. سألته إن كان يعرف أن روايته «المريض الإنكليزي» مترجمة إلى العربية، قال لا، قلت له أظن أن مترجمها هو الشاعر العراقي سعدي يوسف، حزنت أن شاعراً كبيراً مثل سعدي، كثير الأسفار، متعدد الثقافات، وعلاقته جيدة مع العالم، لا يتواصل مع المؤلف عند الترجمة، ليس حفظاً للحقوق، على الرغم من أهمية ذلك، بل لضمان جودة الترجمة وسلامتها، سألت مايكل، إن كانت الرواية بلغتها الأصل، أقصد الإنكليزية صعبة ومعقدة قليلاً. ابتسم وهو يقول: تقريباً، لأن كثيراً من القرّاء وجدوا صعوبة في قراءتها.

وّدعنا مايكل بعد أن ظهر على الشاشة الإلكترونية رقم موقف القطار الذي سيقلّه، وتحدث معي نور، فأخبرني أن مايكل سيرلانكي، لكن عائلته أصلاً من هولندا، وهو يعيش حالياً في كندا. سألت نورالدين: هل تقدّم نفسك بصفتك كاتباً عربياً؟ أم كاتباً أفريقياً؟ قال بل بصفتي كاتباً أفريقياً. نحن لا علاقة لنا بالعرب، أنا تعلمت العربية كلغة أجنبية، فأمي وأبي لغتهما الأصل صومالية، وليس لها أي شبه، أو علاقة باللغة العربية، كما هي اللغة الأمهرية في أثيوبيا، أو اللغة التغرينية في أرتيريا، فهما أقرب إلى العرب! ثم إن العرب يسمون الصوماليين زنوجاً! أليس كذلك؟ قلت لا أعرف! قال: بلى هم يسموننا الزنوج، إذاً نحن لسنا عرباً، هناك صوماليون يدّعون أنهم عرب، وأن أصولهم تلتقي مع الرسول!

تذكر نورالدين أنه يرغب في مكالمة غابي ببنغوين، فاتصل بها، وبينما كان يضع لها رسالة في جهاز التسجيل الصوتي رنت نغمة الرسائل في جوالي، وفتحت الرسائل الواردة: «نادي القصيم الأدبي يدعوكم لحضور «إشكالية وقت صلاة الفجر حسب تقويم أم القرى»، د. عبدالله المسند. الثلاثاء 1429/5/1هـ الساعة 9 مساء بمقر النادي». ابتسمت بهدوء وأغلقت الجوال، كنت أفكر أنني ارتكبت حماقة حين تأخرت استقالتي من نادي الرياض الأدبي، هذه الأندية البليدة التي لا تفرق بين الأدب وفنون الكتابة الإبداعية من جهة، وبين موضوعات الخطب والمحاضرات الدينية من جهة أخرى.

ظهر على اللوحة أن الرحلة ستتأخر عشر دقائق، ولمحت على بعد رجل بوليس يقوده كلب ضخم يتجول بين المسافرين الواقفين في الأنحاء والمحدقين بالشاشة الضخمة، قلت لنفسي وأنا أرى الكلب يقبل صوبنا، أنا ونور، ماذا لو هجم فجأة عليَّ، من سيخلصني منه، هل سيقتله الشرطي؟ أم سيوقفه الناس هنا؟ أم سيمزقني؟ مر بجوار نور، ولم ألتفت نحوه قلقاً.

بغتة ظهر رقم موقف قطارنا فاتجهنا فوراً، وقابلنا في الطابور الأمريكي من أصل نيجيري أوزودينما بسحنته الجادة، وملامحه الخجولة والدمثة، وببذلته الأنيقة. دخلنا القطار واتخذنا طاولة رباعية. كان نور قد جلب معه طعامه من مطعم هندي، فهو منذ أربع سنوات تحول إلى نباتي، قلت له إنني سأجلب شيئاً لآكله. أجاب: أنتم العرب تحبون اللحم، أجبت: لا، لكنني لا أستطيع أن آكل الوجبات الحارة، مثل الأكل الهندي الذي يكون مليئاً بالتوابل الحارقة. سار القطار بهدوء وطالعنا ناطحات السحاب الشاهقة في مشهد بانورامي بديع يمثل جمال مدينة نيويورك، تذكّر نورالدين أن ليس لديه ملاعق، أجاب أوزو، ونحن ذاهبان إلى الكافيتريا آخر القطار، بأنه سيجلب ملاعقَ وشوكاً أيضاً. أخذت ساندويتشاً بلحم الديك الرومي مع الجبن المذاب، وكأس شاي، أخرج نور وجبته وقاسمه الأكل أوزو، وقد وضع نور زجاجة النبيذ الأحمر فوق الطاولة، نظر نحوي وقال هذه حرام عندكم! وما إن مرَّ جامع التذاكر السمين حتى توقف، ونظر إلى طاولتنا، وهو يسأل نور: ما هذا؟ أجاب: أنا لا أكل إلاّ وجبات نباتية، لذلك...! قاطعه الرجل

السمين بقبعته الزرقاء: أقصد الزجاجة؟ وأضاف: خبئها، ضعها تحت الطاولة! ضحكنا جميعاً، وضحك جامع التذاكر أيضاً، قلت لنور: أرأيت؟ حتى هنا في أمريكا هذا يعد محرّماً! بعد الأكل انشغل نور بقراءة جريدة «النيويورك تايمز»، بينما انشغل أوزو بمراجعة محاضراته الجامعية حيث يدرس الطب في الجامعة، بينما فتحت جهاز الكمبيوتر المحمول خاصتي، وبدأتُ أكتب يومياتي في نيويورك.

في ذروة انهماكي. لمحت نورالدين يناول أوزو صفحةً من الجريدة، وبعدما قرأ الخبر، مرّره إليَّ، فوجدت خبراً في رأس الصفحة عنوانه: كونشيرتو غير معتادة في السعودية، مصحوبة بصورة تمثل جزءاً من جمهور أجنبي يظهر بينهم شاب سعودي بغترته، في مركز الملك فهد الثقافي، تناول الخبر الأسبوع الثقافي الألماني في السعودية المصحوب بالموسيقى، ما يعني أن ثمة انفتاحاً ثقافياً في السعودية بحسب وصف السفير الألماني في الرياض. ابتسمت حين قرأت الخبر، وقلت إنني أتمنى ذلك. أجاب نور: لا تأخذ الجريدة معك، فقد تعتقل هناك!

نعس نورالدين وأسند رأسه قليلاً، وصرت أتأمل الطبيعة في الجوار، حيث مررنا بقنال مظلم، قبله كان النهر بديعاً وساكناً على الجهتين. حين توقف القطار في المحطة الشمالية من بوسطن، تقدم أوزو إلى سيدة هندية سمينة، تلبس الساري الهندي،

وصافحها ثم تقدمت منا وصافحتنا أيضاً، وجدنا التاكسي ينتظر، وسائقه يحمل ورقة مكتوب عليها: اسم نورالدين. صعدنا معه ثلاثتنا وانطلق السائق المغربي الذي رحّب بنا بحرارة، وبينما نزل أوزو في مكان قبلنا، واصلنا أنا ونورالدين الطريق إلى فندق فيرمونت إلى بوسطن. حين ذكرت اسمي لموظفة الاستقبال كي تبحث عن الحجز، قالت لي، هناك أيضاً رسالة لك، سأطبعها حالاً، من غابريلا تقول فيها إن هناك من سيأتي غداً صباحاً في تمام التاسعة والربع، كي يأخذني إلى إذاعة بوسطن لإجراء حوار سبق إدراجه في برنامج رحلتي. في المصعد رنَّت نغمة الرسائل في جوالي، قرأت في رسالة من الصديق الروائي الشاب علوان السهيمي: «كل ما يقال حول قبولك دعوة سلمان رشدي، حسدٌ مركب يا صديقي فلا تهتم أبداً». شكرته وأخبرته أنني لم أعد ألتفت أبداً إلى هؤلاء!

حاولت أن أنام قبل جلسة مكتبة هارفرد، ولم أستطع، فاسترخيت في الغرفة الفارهة، وقبل أن أخرج تفقدت الغرفة، ووجدت خزانة الأمان الحديدية، قلت لنفسي، هذا رائع، أخيراً سأتخلص من حقيبة الكمبيوتر المحمول، لكن الخزانة لم تعمل، حاولت أن أدخل الأرقام الأربعة بلا فائدة، قررت أن أحمل جهازي على كتفي وأنزل كي لا أتأخر، حين وصلت البهو تلفت فلم أجد نورالدين، طلبت من موظف الاستقبال أن يتصل بنورالدين، ناولني السماعة ولا أحد يجيب، قلت ربما أخطأ الموظف رقم

الغرفة، فأنا أعرف أنه معي في الطابق نفسه، سألته عن رقم الغرفة فرفض أن يخبرني، قلت له إنني زميله، وأسكن في الفندق نفسه، لكنه اعتذر، نحن لا نخبر بأرقام غرف الساكنين لأسباب أمنية. حاول مرة أخرى ولا أحد يجيب. خرجت من البوابة فوجدت سائق أجرة سوداء يرفع ورقة باسم نور، سألته ألم يأت بعد. قال لا، ثم سألني: أنت عربي؟ أجبته نعم، فكان مغربياً أيضاً. اقترب الموعد كثيراً ولم يظهر نور، عدت إلى موظف الاستقبال، وحاولت ثانية بلا فائدة، حين خرجت إلى السائق كانت الساعة قد بلغت السابعة والنصف موعد الندوة، طلبت من السائق أن ينطلق، سار مسرعاً وبعد ربع ساعة أوقفني عند مكتبة هارفرد، شكرته ونزلت مهرولاً، سألت البائع عن مكان الندوة، قال ليست هنا، بل في فرع آخر! قلت: اللعنة! سألني: هل أنت متحدث في الندوة؟ أجبت: نعم. قال هي قريبةٌ من هنا ثلاث دقائق مشياً. مشيت ودخلت مكتبة فارهة من ثلاثة أدوار. صعدت الدرج الدائري، ووجدت الجمهور في الطرف، حين أقبلتُ أشار أوزو، مدير الندوة، إليّ قائلاً: ها هو يوسف التحق بنا أخيراً، فصفق الحضور، وهم يديرون رؤوسهم نحوي. جلست مرتبكاً ومعتذراً لتأخري. وما كدت ألتقط أنفاسي، حتى التفت نور نحوي ورمى سؤالاً مباغتاً: لِمَ تكتب؟ كأنما كان أوزو قد سأله السؤال ذاته، وفي أثناء إجابته ظهرت أنا. قلت: لا أعرف، ربما للمتعة أو للتسلية أو لمعالجة نفسي مثلاً. سار الحوار بشكل دافئ وحميم جداً، فعلى الرغم من الحضور القليل إلا أن

الجلسة كانت دافئة للغاية، حيث كان أوزو بهدوئه ودماثته يقود الحوار بشكل متقن، وكذلك كان نور يجيب بطريقة رائعة متمهلة، ينسج الكلمات بهدوء ووعي، لم تكن الأسئلة مهمة كثيراً، في نهاية اللقاء وقَّعنا النسخ الموجودة، ثم صافحني شاب سعودي كان قد أنهى دراسة الماجستير في القانون، وكذلك الصديق خالد المصري الذي رأيته للمرة الأولى. قال لي: هل سنخرج معاً، أم سترتبط بنور وأوزو؟ قلت له بل سأذهب معك، فقد كنتُ معهما طوال الطريق، لمدة أربع ساعات. أصر الشاب أن أذهب معه، لكن خالد بطريقة عربية جميلة قال للشاب: أنتما ضيفيَّ معاً. خرجنا ثلاثتنا إلى مطعم قريب، يقدم أكلات عربية. تحدثنا طويلاً عن الكتابة والترجمة والنشر، ووضع الرواية العربية في الدول الغربية. خرجنا وودعنا الشاب، بينما تجولت مع خالد قليلاً، دلفنا مبنى جامعة هارفرد العريق، الذي أنشئ فيه أول مبنى عام 1636م، وقال لي خالد وهو يشير إلى المكتبة: هل تصدّق أن في هارفرد مائتي مكتبة؟ شهقت: يا إلهي! قال لي وهو يشير: هذه المكتبة ليست مجرد هذا المبنى الذي تراه فحسب، بل حتى الأرض التي نمشي فوقها الآن، يوجد تحتها قبو هائل يتبع المكتبة. قال بنبرة ولع: كل كتب الدنيا موجودة هنا، هل تصدق أن كل كتبك وجدتها هنا؟

اليوم السابع

الحديث مع طلاب «هارفرد» وطالباتها

كنت قلقاً في اليوم الأخير، فلدي أكثر من مشوار لا يفصل بينها سوى دقائق، آخرها الذهاب إلى المطار، كنت أخشى أن أتأخر عن رحلتي. قمت صباحاً مبكراً، ولاحظت ظلاً تحت باب الغرفة، وجدت طرف جريدة «النيويورك تايمز»، سحبتها من دون أن أفتح الباب، ووجدت معها ورقة تشير إلى أن مواعيد الخروج من الفندق هي الثانية عشرة. أخذت حماماً طويلاً، خرجت وأعددت حقائبي، وقد قررت أن أخرج من الفندق وأحمل حقائبي للمهمتين القادمتين: حوار الإذاعة، ومحاضرة جامعة هارفرد، تمام التاسعة والربع حملت حقيبة المحمول على كتفي وخرجت ركضاً من دون أن أتناول إفطاري. في الممر الطويل وجدت آنية إفطار أمام باب إحدى الغرف، نظرت إلى الخلف، فلم أجد السيدة منظفة الغرف، فانحنيت والتقطت شريحة خبز توست، وجعلت ألوكها وأنا أهرول نحو المصعد، حين نزلت خرجت من الممر الطويل متّجها نحو

بوابة الفندق، فلمحت سيدة ستينية تتحدث في الهاتف، وفتح لي رجل الأمن باب الفندق الزجاجي، وهو يقول: أتريد تاكسي يا سيدي؟ قلت لا، هناك من سيأتي ليأخذني. قال لي: لحظة لا تتحرك سأدعوها الآن. خرجت السيدة الستينية واسمها إليزابيث وصافحتني، كانت ودودة للغاية، سويدية الجنسية، وقد انتقلت من السويد إلى أمريكا عام 1961م. سألتني إن كنت أود أن آخذ حقائبي معي؟ كأنما قرأت أفكاري، قلت لها إنني أفكر بذلك، أجابت سنذهب إلى الإذاعة الآن، وسيكون هناك وقت بعد خروجنا، سنعود إلى الفندق، لتقوم بتسليم الغرفة، وتأخذ حقائبك، ثم نمضي فوراً إلى جامعة هارفرد.

مضينا، وتحدثت طويلاً عن أسرتها وأولادها الأربعة، وأحفادها الكثيرين، حيث إن أحد أولادها لديه سبعة أطفال، ما أدهشني لأن ذلك أمرٌ غير مألوف في أوروبا، مررنا بجوار نهر تشارلز الطويل والرائع، الفرق هنا في بوسطن أن المساحة شاسعة ومنبسطة، والنهر كما لو كان في بريطانيا، حوله مساحات خضراء بديعة، لا ناطحات سحاب، كما نيويورك. كانت معها في السيارة نسخة من روايتي، سألتني حينما نزلنا من سيارتها الفولفو، إن كنت أحتاج النسخة في الحوار، قلت سآخذها من باب الاحتياط. كانت السيدة معدة البرنامج باستقبالنا، فسألتني كالعادة إن كانت هناك موضوعات ترغب في أن تتجنب الحديث حولها، قلت لها لا، وسألتني عن مشاركاتي في المهرجان وكتابتي الرواية، ثم سألت

إن كنت أريد قهوة أو شاياً، أجبت بحماسة: نعم، فلم تزل غصة شريحة التوست اليابسة تحتاج إلى أي سائل ساخن. أخذتنا إلى الكافيتريا، في مبنى الإذاعة المذهل، فتذكرت على الفور دهاليز إذاعة الرياض المعتمة، أخذت شاياً، بينما أخذت إليزا قهوة، ثم أرتني مُعِدَّة البرنامج جانباً بانوراميا من بوسطن، وذهبنا إلى الاستوديو في الوقت المحدد، وهي تقول إن مستمعيها يبلغون مليوني مستمع، دخلنا قاعة واسعة ملأى بالمحررين والمعدين، ثم فتحت باب الاستوديو ووجدت المذيعة التي قابلتني بوجه بشوش، وهي تشكرني أن وافقت على دعوة الحوار. لاحظت أن نسخة من الرواية كانت بين يديها، مليئة بورقات صفراء كثيرة، كعلامات وقف أو ملاحظات، ضحكت وهي تخبئ الرواية عني، وتقول، ستوقعها لي حين ننهي الحوار. كان الحوار جميلاً للغاية، قالت لي لن نتوقف إلا بعد ثلث ساعة، مع أن الحوار سيكون في حدود خمس إلى عشر دقائق، بعد عملية التحرير عليه، سألتني بوعي دقيق عن الشخصيات الثلاث في الرواية، ثم عن المجتمع السعودي، وكذلك الأدب السعودي، وسألت السؤال المعتاد، لماذا تطبع كتبك في لبنان، لا في السعودية، فحدثتها عن الرقابة في بلدي، وسألتني ألا يضايقك ذلك؟ أجبتها: بلى، لكنني متفائل أن ثمة شيئاً سيتغير، خصوصاً أن التعامل مع الكتب المطبوعة في الخارج بات أفضل مما كان قبل سبع سنوات، لكننا نطمح أن تطبع كتبنا في الداخل، لا أن تطبع في الخارج ثم توزع في الداخل، وقلت لها، إن التغيير

سيأتي كما هو الحال هنا. سألتني: كيف؟ قلت: إن الرقابة كانت موجودة في كل العالم حتى في أمريكا! فأذكر أن الشاعر الأمريكي الكبير آلن غينسبيرغ قد سُحبت مجموعته التي كتب فيها قصيدته الرائعة «عواء»، وذلك عام 1952م. ثم سألتني عن مشاركتي في ورقة «الأدب الأمريكي كما يُرى من الخارج»، فحدّثتها عن تجربتي القرائية مع الأدب الأمريكي منذ هيمنغواي وشتاينبك، وحتى بول أوستر، مروراً بجيل «البيت»، وسألت ما إذا كان يعجبني جيل «البيت»، أجبتها نعم، وذكرت لها أننا نعيش في السعودية تجربة جيل شاب يشبه جيل «البيت» من حيث الانطلاق بالأفكار والكتابة، على الرغم من الضعف الواضح في أدوات الكتابة.

انتهى الحوار ودخلت معدَّة البرنامج، وهي تستأذن أن تلتقط لي صوراً مع المذيعة، فرحبت، ووقّعت نسختها، ونسخة المذيعة أيضاً، وخرجنا وهي تعدني أن ترسل إليّ رابط الحوار على بريدي الإلكتروني، وكذلك الصورة التي التقطتها. شكرتها ومضينا، انطلقنا إلى الفندق، وطلبت إليزا أن أوقعَ نسختها من الرواية ففعلتُ، والتقطتُ حقيبتي من الفندق ثم خرجت، واتجهنا نحو جامعة هارفرد.

هاتفتُ خالد من موبايل إليزا، ووصف لها المكان، وما إن بلغنا الموقع حتى وجدته يقف على الرصيف منتظراً، قالت إليزا إنه يمكنني ترك حقائبي في مؤخرة سيارتها، كي ننطلق بعد المحاضرة

مباشرة إلى المطار، شكرتها، وطلبت منها حقيبة كمبيوتري، كي أسلِّم صديقي خالد نسخته من روايتيّ «فخاخ الرائحة» و«نزهة الدلفين»، لأن النسخ التي معه مستعارة، ومسجل عليها رقم إيداع مكتبة هارفرد. دخلنا الغرفة المخصصة للمحاضرة، كانت معدة بطاولات منتظمة على حدود الغرفة، تحوي أكثر من خمسة عشر كرسياً، إضافة إلى مقاعد بلا طاولات ملاصقة للجدار. بدأ الطلاب والطالبات يدلفون الغرفة، وعرّفني خالد إلى رئيس قسم اللغة العربية والأدب العربي في جامعة هارفرد، الذي اتخذ له مكاناً. أشار خالد علينا أن نبدأ بتناول وجبة غداء من مطعم هندي، أخذت طبقي وخرجت وجاء برفقتي رئيس القسم، تحدث عن دراسته في القاهرة، وذكر لي خالد أنه ترجم ثلاثية رضوى عاشور. قال لي هل تشرب شيئاً، كولا أو سبرايت أو عصيراً. طلبت شاياً، حاول أن يجد لي شاياً، لكن السخَّان لم يعمل، وقد وضع كيس الليبتون الصغير فيه، قلت: لا عليك. ثم أخذت كأس ماء، وبدأت المحاضرة بعد أن انضَّمت إلى الجلسة د. سعاد المانع، التي كانت تدرِّس العربية لأشهر محددة في هارفرد. بدأ خالد مقدمة عنِّي، أفاض فيها وأشاد كثيراً بتجربتي القصصية والروائية، خصوصاً في «فخاخ الرائحة» و«أخي يفتش عن رامبو»، وترك لي الحديث مدة نصف ساعة قدمت خلالها نظرة بانورامية شاملة عن تجربتي في الكتابة. ثم تركنا المجال لأسئلة الطلاب الذين كانوا مترددين وهم يطرحون السؤال بلغة عربية مكسَّرة قليلاً، على الرغم من أن

بعضهم يتحدث بطريقة رائعة. فكانت الأسئلة من قبيل: ما سبب الاهتمام الكبير مؤخراً بالرواية في العالم العربي؟ وهل ستكتب في المستقبل عن مجتمع غير المجتمع السعودي؟ ونشر كتبك في الخارج ألا يؤثر فيك؟ ألا تأتي مضايقات لك من أي مكان؟ بينما كان السؤال الأخير لسعاد المانع، التي قالت إنها سمعت كثيراً عن حكايات مشابهة لقصة السوداني توفيق، إلا أنها للمرة الأولى تجدها مكتوبة. ثم قالت إنها لا تعتقد أن عمليةَ الرق والجلب والبيع موجودة زمن الثلاثينيات أو الأربعينيات، فمن أين أتيت بهذه المعلومة. أجبتُ أنها ليست مجرد معلومات، بل هي وثائقُ محفوظةٌ بالأسماء والأعمار والتواريخ، لبيع الرقيق، وأحلتها إلى الأمين العام للحزب الشيوعي السوداني الأستاذ محمد إبراهيم نقد الذي منحني هذه الوثائق الرائعة في كتابه المهم «علاقات الرق في المجتمع السوداني»، أحد المراجع المحورية في كتابة روايتي تلك.

وحين انتهت المحاضرة تقدمت طالبة روسية، وهي تتكلم العربية بطريقة جيدة جداً، وسألت إن كانت ترجمة «القارورة» للروسية قد صدرت فعلاً أم ليس بعد؟ أخبرتها أنها جاهزة لدى الوكيل الذي أرسلها إلى وكيل وسيط في موسكو، وأنني آمل أن يجد لها ناشراً جيداً.

أخذني خالد سريعاً من أجل توقيع أوراق مكافأة المحاضرة، ولم نجد الموظفة المسؤولة، فاكتفى خالد بتصوير أوراق الجواز،

على أن يرسل النموذج لي كي أوقعه عبر الفاكس وأعيده مرة أخرى.

فانطلقنا إلى المطار.

بعد السفر
«يوسف أعرض عن هذا»

عدت ممتلئاً بالحب والأمل، يخالطني شعور بأنني بدأت الآن بكتابة الرواية، كم كانت الرحلة مفيدة، وقد منحتني هذه الطاقة المذهلة، لم يعد الشعور بعدم جدوى الكتابة يعرِّج عليَّ، كما كنت خلال العشرين عاماً الماضية. في مطار بوسطن تجولت كعادتي، فكلما وطأت مكاناً مجهولاً، قمت باستكشافه، ورصد تفاصيله، وتحسسه بكل ما أملك من حواسٍ مدرَّبة، وجدت مكتبة كبيرة، ليست على عادة ركن الصحف والكتب التي نعرفها، تجولت فيها، توقفت أمام قسم الرواية، فوجدت روايتي «فخاخ الرائحة» طبعة بنغوين، وحزنت أن تكون روايتي بلغة أجنبية متوافرة في أحد مطارات العالم، بينما لا تتوافر في مطاراتنا سوى الكتب الدينية، أو كتب تحفيز الذات، أو كتب الطبخ والتسلية.

كنت أعتقد أن حكاية دعوة سلمان رشدي قد انتهت، لكنني حالما وصلت إلى الرياض، وجدت العديد من الرسائل الإلكترونية

والاتصالات التي تبحث عنّي، وتسأل عن الموضوع، بطريقة هل قابلت سلمان رشدي؟ هل هو الذي أرسل إليك الدعوة؟ هل صافحته؟ وهل ... ما يجعلني أبتسم كلما فتحت إحدى الرسائل. قررت أن أتجنب الخوض في هذا الحديث، لسبب شخصي جداً، وهو أنني لا أريد أن أقدم اسمي وصوتي لمن لم يقرأ لي بعد، بتحريض الضوضاء والضجيج المفتعل والعابر، بل بواسطة كتبي ذاتها، لا أريد أن يتعرَّف إليَّ القارئ من خلال محركات البحث، بل عبر رواياتي في أرفف المكتبات، لذلك تخففت من الرد على الاتصالات، إلا على من أعرفه من الأصدقاء الصحفيين وأثق به، لم أرغب في أن أمنح الصحف فرصة الإثارة المجانية.

كما تلا ذلك من موضوعات إثارة ارتبطت بالروايات التي كتبتها في ما بعد، وترجمة أعمالي، والجوائز التي حصلتُ عليها لاحقاً، نقادٌ وصحفيون وأشباهُ صحفيين ومتسلقون على اسمي، حاولوا بكل ما يملكون من وقتٍ وجهدٍ إدارةَ حملات منظّمة ضدي، مرة بأنني سرقت هذه الفكرةً أو تلك، ومرة بأن رحلتي وعلاقتي بالغرب فيها شبهات، وثالثة بأنني لم أكتب شيئاً يستحق الانتباه، وعاشرة بأن أمر ترجمة أعمالي والجوائز التي تُمنح إليّ لها أهداف مغرضة، كل هذه الإثارة المجانية كان البعض من الصحفيين، بسوء نية أو بحسنها، يبحث عن الإثارة، ويظن أن سؤالي عن هذا الاتهام أو ذاك، قد يجر قدمي أو لساني، إلى مجاراة الآخرين في الثرثرة على صدور الصفحات الثقافية، لكنني لم أفعل شيئاً سوى الصمت، والعمل بهدوء وعزلة.

كنت بحاجة شديدة إلى الراحة الذهنية والجسدية، واستمتعت لبضعة أيام بهدوء مثمر، لكن ذلك لم يستمر للأسف، وبمجرّد أن استيقظت صباح السبت، العاشر من أيار/مايو، كي أذهب إلى عملي، حتى صعقتُ برسائل جوالات من أصدقاء لم يعرفوا عن الأمر شيئاً، فكأنما بدأت الحملة من جديد، وكأنما ثمَّة من حرَّك رمادها ثانية. فاكتشفت أن ثمة مقالة بعنوان «يوسف أعرض عن هذا»، كتبها د. سلمان العودة في زاويته بجريدة «عكاظ». إذاً لقد عادت الدوامة تعصفُ من جديد، وتتابعت الاتهامات غير المحسوبة، خصوصاً في مواقع الإنترنت ومنتدياته.

لم تكن مقالة الشيخ قاسيةً ولا متهماً، بل كانت لغته راقية ومهذبة، لكنني لم أكن في حال مناسبة للتعامل مع هكذا سجال، والأمر بالنسبة إليّ قد انتهى، فلا جدوى من الجدال حول أمر قد قضي، إلا إذا كان عليَّ أن أسير خلف وصية الشيخ، بأن أغسل يدي بماء الوضوء، وأن أعتذر عمَّا فعلت، لأنني ذهبت هناك وشاركت في هذا المؤتمر.

كم كنا صغاراً، حينما تعنِّفنا أمهاتُنا بأن نغسل أفواهَنا بالماء سبع مرات، حينما نتلفظ قولاً خارجاً عن المألوف والعرف الاجتماعي، وكأننا نتطهر من سوءاتنا، كم كنت بحاجة شديدة إلى أن ألفظ الماء المخزون في فمي، على مدى أربعين عاماً، كي أتحرَّر وأقول وأتطهَّر من خوفي. هكذا تنهَّدت وهمست لنفسي بعدما قرأت المقالة.

كنت أفكر، هل كانت تلك نصيحة مثلاً، أظن أن النصيحة توجَّه إلى الشخص مباشرة إذا كان يعنينا أمره، دونما وسائط، هل كانت وصاية على ما أفعل أو ما لا أفعل، لا أعتقد أن أحداً وصيٌّ على أحد، يملي عليه ما يفعل وما لا يفعل، إذاً ما معنى هذا النمط من الكتابة؟

فكّرت أن أخرج بأطفالي إلى الخلاء، فلم يكن ثمّة مكان أقرب من «الثمامة»، فخرجت بهم ليلاً، حيث المدينة لم تكد تخلع بعد ثوب نيسان/أبريل، هذا الشهر الذي أحب الرياض وهي تتزيّن به، فليس شهر الكذب هنا، بل هو أعلى درجات الصدق، حيث يصبح الهواء الليلي في نجد لا يقاوم، ولا يمكن أن تجد مكاناً في العالم يمنح مثل هذا النسيم الذي يغسل الروح، هكذا شعرت أنه عليَّ أن أغسل روحي، لا يدي كما ينصح المقالة.

لم يكن صعباً أن أقنعَ أطفالي بأن لا ندخلَ المتنزهات المسوَّرة، فمجرد كأس بسكويت من الآيس كريم، وكيس فشار مملح، يكفي لكل منهم، كي يسيروا وفق رغبتي، فنتمدد على تل رملي بارد، وأجد فرصةً نادرة لأتأمل السماء الصافية، أسرح بعيداً خلف النجمات المضيئة، كنت بالفعل أحتاج إلى لحظات صفاء كي أعود إلى مدينتي التي أحبها.

لم يقطع صفاء اللحظة وندرتها سوى رنين جوالي، تأملت الرقم، كان خارجياً، تردَّدت لوهلة قبل أن أجيب، فكان صوت

الإعلامي تركي الدخيل، رخيماً وودوداً، على الرغم من أنه كان الاتصال الأول بيننا، وكأنما أعادتني مكالمته إلى الحالة ذاتها، أن أكون ضيفاً على برنامجه الشهير «إضاءات». كنت أقول في داخلي، ليتك دعوتني قبل ذلك، أو بعد ذلك بأشهر، لماذا الآن تحديداً؟ ها قد عدت إلى حالة الوسوسة بشأن أن أكون كبش فداء لهالة إعلامية مجانية، تحجَّجت بدءاً بأنني عدت للتو من السفر، ولا أملك طاقة السفر ثانية إلى دبي، إلا إذا كان الحوار سيتم تسجيله في الرياض، فشرح لي أن الإمكانات في استوديو المركز الرئيس أفضل بكثير، وأكد أن تنظيم الرحلة سيكون بمنتهى السهولة، وأنها ستكون رحلة استجمام بعد سفر طويل، لكنني لم أستطع أن أخفي قلقي، حينما قلت له إذا كان الحوار عن موضوع سلمان رشدي تحديداً فأرجو أن تعذرني، لكنه أكد أن هذا الموضوع لن يستحوذ على أكثر من بضع دقائق، بينما سيناقش الحوار تجربتي في كتابة الرواية.

هكذا مضت تلك الليلة وادعة، أحدِّق في النجمات الصغيرة، بينما نجمتاي الصغيرتان تلعبان على الرمل، ولا يقطع انسجامنا وأحاديثنا سوى ضجيج الطائرات حينما تقلع من مطار الملك خالد الدولي، لتنهض طفلتي الصغرى، نافضة التراب العالق بيديها، وتقفز بشغب، كأنما ستلمس جسم الطائرة الضخم.

مقتطفات من أوراق المؤتمر
الأدب الأمريكي كما أراه[1]

لو قيل لي، قبل ثلاثين سنة تقريباً، وقت أن عثرت على رواية «العجوز والبحر» في مكتبة صغيرة قرب منزلنا القديم في الرياض، مكتبة تدعى «المكتبة العربية»، وقرأتها آنذاك بمتعة نادرة، لو قيل إنك ستقف يوماً أمام حشد من الجمهور الأمريكي، وتتحدث عن رؤيتك تجاه الأدب الأمريكي، لقلت له إنك تهذي حتماً، أو إنك مجنون فعلاً! لأنني لم أفكر بأن أصبح كاتباً، فضلاً عن أن أتحدث عن أدب مهم ومؤثر في الأدب الإنساني العالمي، وها أنذا أتحدث أمامكم عن تلك اللحظة البعيدة، وقت أن جلست في سطح المنزل، هارباً من الضجيج والصخب، وطلبات أمي التي تزداد على ولد وحيد بين أربع بنات كبيرات.

وقت ذاك كنت في الثالثة عشرة، حين قرأت «العجوز والبحر»

(١) *مقتطف من ورقة في جلسة «الأدب الأمريكي من الخارج»، مركز التايمز، يوم الخميس ١ أيار/مايو ٢٠٠٨م.

لآرنست همنغواي، وأحببتها كثيراً، فحدثت صديقي في المدرسة عنها، وقال لي إن الرواية الحقيقية هي «الصخب والعنف» لويليام فوكنر، وأنه سيسرقها لي من مكتبة والده في نهاية الأسبوع، فانتظرت عطلة نهاية الأسبوع بشغف، ثم قدمها إليّ خلال الفسحة كي لا ينتبه المدرّس ويعاقبنا معاً، وحين عدت إلى البيت بدأت أتصفح الصفحات مثل كنز سأكتشفه بعد لحظات، قرأت اسم جبرا إبراهيم جبرا، المترجم والروائي العربي المعروف، قرأت وقرأت وقرأت، وبعد عشرين صفحة لم أفهم شيئاً، قلت لنفسي لا بد من أنك غبي ولا تفهم الأدب الثقيل، وحين أعدت الرواية بعد ثلاثة أيام إلى صاحبي، سألني عن رأيي، فقلت له إنها رائعة لكنها صعبة وغير مشوِّقة، فاضطررت للكذب عليه حتى لا يقطع عني زاد الروايات، وعلى الرغم من ذلك ظلَّت هذه الرواية تحديداً، حلماً بأن أقتنيها يوماً ما، وأقرأها فأفهمها، وزاد هذا الإصرار بعد سبع سنوات، إذ وقعت بين يدي وأنا في العشرين، مجموعة قصصية مترجمة من الأدب الأمريكي، من بينها كانت قصة بعنوان «وردة من أجل إيميلي»، فكانت هذه القصة طوفاناً عصف بقلبي الغض، وقادني بشراسة وقوة إلى عشق القصة القصيرة من جهة، ومن جهة أخرى جعلني ألهث بحثاً عن «الصخب والعنف»، فلا بدَّ من أن المشكلة كانت فيَّ تحديداً، وليست في رواية فوكنر، ولا في ترجمة جبرا إبراهيم جبرا.

وبعد أن قرأت «الصخب والعنف» من جديد، شعرت أن فوكنر لم يكن متصالحاً مع تجارب آرنست همنغواي، ولا مع جون

شتاينبك، وكأنما له امتداد أوروبي وذائقة مغايرة للسائد آنذاك، تماماً كما هي تجربة بول أوستر، التي لم تكن متصالحة مع تجربة ريتشارد فورد وريموند كارفر وغيرهم من جيل «الواقعية القذرة» أي «The Dirty Realism»، التي تمّ تدشين مسماها بواسطة افتتاحية مجلة «غرانتا» البريطانية، هكذا أشعر أن ثمة نوعاً حياتياً، يكرِّس الحياة اليومية بوحشيتها ولعنتها كما في كثير من أعمال الواقعية القذرة، أو في جيل التحدي أو التهميش، أو ما يسمى «The Beat Generation» الذي تزعّمه جاك جرواك، خصوصاً في رائعته «على الطريق On the Road» التي كشفت عن أحلام وهزائم وإحباطات ما بعد الحرب العالمية الثانية.

صحيح أن أعمال كاتب كبير مثل فوكنر هي من الأعمال الخالدة، التي لا يمكن تجاوزها بسهولة، كما هي أعمال جيمس جويس مثلاً، إلا أن الأعمال الحياتية اليومية المتدفقة تعد أيضاً رائعة وممتعة بشكل مؤلم وجارح، فلا يمكن أن يتجاوز قارئ الأدب الأمريكي أعمال ريتشارد فورد الروائية، مثل «حياة وحشية» و«عاشق النساء» التي ترخي ظلال حزنها وألمها على القارئ لأيام، ولا أعمال ريموند كارفر، خصوصاً مجموعته القصصية «ثلاث زهرات صفراء». هل كنتُ مأخوذاً في مرحلة مبكرة بكاتب عملاق مثل همنغواي، تماماً كما كنت مأخوذاً بالبريطاني تشارلز ديكنز مثلاً؟ هل تحولت علاقتي معهما وقد اكتشفت هنا وليام فوكنر، واكتشفت هناك جيمس جويس، وقد قادني برائعته «صورة الفنان

في شبابه» قبل أن أتورط في «يوليسس»؟ هي إذاً لعبة القراءة ولعنتها أيضاً، تدخل المغارة فترى ما يلمع، ثم تقترب وتلمسه، ليتحول إلى أمر عادي جداً، فتبحث ببسالة وطموح عما يضيء ويلمع من جديد في حلك المغارة.

لا يمكن أن أصف دهشتي حينما قرأت «في بلاد الأشياء الأخيرة» لبول أوستر، إلى حد أنه جعلني أعيد قراءتها من جديد، وأنا أقارن بين بلاده أو مدينته الغريبة في الرواية وبين الرياض كمدينة مختلفة عن مدن العالم، ثمة تقاطع وتشابك إنساني بينهما، فلم يكن أوستر يعرف الرياض، ولم تكن الرياض لتذهب إلى كاتب أمريكي يقيم في نيويورك كي يصفها بدربة ومهارة فائقة، فهل كانت مخيلة أوستر الواسعة جعلته يعثر على هذه المدينة الغريبة؟ ربما.

هي الرواية إذاً، تلكم التي تحاول أن تختلف عن المألوف، وأن تقيم تشابكاً ما، فساحر نيويورك، بول أوستر، يعيش طويلاً مع شخصياته إلى حد أن تطغى على الشخوص الحقيقيين في حياته اليومية، هكذا إذاً، تظهر الشخصيات هائلة ومؤثرة في القارئ، ولا أملك أن أنسى «بلاك» و«وايت» وغيرها من عالم تجسسي متميز. ما عدا ذلك لا أستطيع أن أتحدث عن الرواية الأمريكية الجديدة التي تكتبها الآن أصوات جديدة، فلست متابعاً لهذه التجارب من جهة، ولا هذه الأعمال تترجم سريعاً إلى اللغة العربية، كما يحدث مع معظم لغات العالم.

كما فعلت الرواية، أعتقد أن القصة القصيرة في أمريكا كانت حاضرة بشكل مؤثر وعميق، في أعمال فوكنر، وأدغار آلن بو، وأو.هنري، وساروريان، وغيرهم، ولعل تجربة أو.هنري القصصية من أهم التجارب التي قدمت نماذج شخصيات إنسانية خالدة في الشعر بعد تكرار اسم والت ويتمان «Walt Whitman» ورائعته أوراق العشب «Leaves of Grass» اقتحم آلن غينسبيرغ «Allen Ginsberg» ذاكرة العالم العربي بعد أن ترجم بعض قصائده الشاعر سركون بولص، خصوصاً رائعته «عواء- Howl» التي كان لها تأثير مهم ليس في بعض شعراء الستينيات في العالم العربي فقط، بل حتى على كتّاب الرواية والقصة القصيرة، إنها صرخة احتجاج وبذاءة تحتاج إليها المجتمعات في لحظات السكون العابرة، لحظات التمسك بتقاليدها وأعرافها، كان لا بدَّ في زمن الخمسينيات من صوت متفرد وجريء وفج، فأحياناً تكون الفجاجة أو الوقاحة مطلباً، كي تكشف فداحة الواقع وقبحه، كم نحتاج إلى نبرة الغضب التي ظهرت في «عواء»، كي نستطيع أن نقف ونعيش ونتنفس ونرفع عن وجوهنا الغبار الثقيل، الغضب الذي يجعلنا نتماسك في زمن مؤلم وجارح. هذه القصيدة الهائلة التي تحاكم مولوخ «Moloch»، وتحاول أن تتمرد على سطوته وهيمنته، وهو ما جعلها تؤثر في كثير من أحلام المبدعين العرب.

كما أظن أن اسم ريتا دوف يحضر الآن بقوة في ذهني، كأحد أبرز أدباء الثمانينيات، ومع أنها أمريكية أفريقية، وعلى الرغم من

احتمال تورط كاتب من هذا الجنس، بقصائد مباشرة تواجه الظلم والتمييز العنصري، لتتحول إلى بيان اجتماعي أو منشور سياسي، إلا أن ريتا دوف كتبت قصيدة تحمل غضبها الخاص، ليس غضب غينسبيرغ الذي فجّر اللحظة الشعرية السائدة زمن الخمسينيات، بل هو غضبٌ جديد ومن نوع مختلف، مؤمن بضرورة مواجهة التمييز العنصري ضد السود، ولكن عبر أدوات القصيدة وصورها الجميلة، التي تسعى من خلالها دوف أن تغوص في عقل الشخص وتفكيره بكل ما فيه من تعقيد، كما يفعل الروائي، كي تكتب مشاعره وأحاسيسه ومواقفه من الحياة، هذا يذكرني ما حاولت شخصياً فعله في روايتي الأولى «Wolves of the Crescent Moon» في طرح موضوع العبيد في السعودية، وطريقة تهريبهم زمن الطفولة من السودان، ثم تشغيلهم بطرق غير إنسانية.

كم كانت دوف مذهلة في قصيدتها «بقدونس» التي كشفت زمن الديكتاتورية في جمهورية الدومينكيان عام 1937م، وقت أن قتل الديكتاتور تروجيلو 200 ألف من سكان ولاية هاييتي السود، وقد استخدم لعبة حرف الراء لدى العاملين في حقول قصب السكر، ليميّز من سيقوم بإعدامه، لقد كانت فكرةً ذكيةً وبناءً محكماً في وحدات القصيدة الثلاث، وما يحسب لتجربة دوف في مجملها أنها تتجنب إصدار أحكام خطابية بشأن التفرقة العنصرية.

هكذا إذاً يفعل الأدب دائماً، يجعلنا نرى العالم بصدق

وحميمية وصفاء، وهكذا أحاول أن أرى أمريكا عبر الأدب، لا عبر السياسة، هكذا جعلني الأدب الأمريكي أرى وجهَ أمريكا الحب والوحشة والغربة والحزن والغضب، لا وجه أمريكا جندي العالم وحارسها، أرى أمريكا المبدعين المحترقين بوعيهم، لا أمريكا الجيوش والقواعد العسكرية، أمريكا مارك رجل الإطفاء الذي عاد منهكاً من حريق لم ينطفئ، وابنه جيم الطفل الذي يرى أمه لحظة تخون أباه في رواية ريتشارد فورد، لا أمريكا مخلّص العالم، أمريكا آلن غينسبيرغ وصرخته «عواء» التي لم تزل تطرق قلبي، لا أمريكا بوش وتشيني وذهنية الاحتلال، أمريكا المبدعين والمشردين، لا أمريكا الشركات المتعددة الجنسيات، أمريكا الشك والقلق، لا أمريكا اليقين والطمأنينة، و... إنها أمريكتي أنا الخاصة، التي أحبها وأكتشفها عبر كتب الأدب وحدها، لا عبر الميديا ونشرات الأخبار...

كتب غيَّرت حياتي[1]

عندما كنت في الثامنة، لم يكن التلفزيون موجوداً في بيتنا، لأن أبي كان يرفض دخوله مطلقاً، إذ يعتبره حراماً ويفسد الأخلاق، وهذا الأمر جعلني أخرج إلى الشوارع، فأشاهد مباريات فريقي في تلفزيون المطعم المجاور، أما في الليل، فحين تكون الليلة تخص زوجة أبي، وهذا يعني أن أبي لن يبقى معنا في غرفتنا، كنا نحيط بأختي الكبرى التي تقرأ علينا من كتاب «ألف ليلة وليلة»، حيث أبقى مذهولاً بالحكايات المشوقة، فكان هذا الكتاب من الكتب التي أثّرت في طفولتي، ولمّا تزل معظم حكاياته ترن في أذني، لم تزل حكايةُ البنتِ وأختيها من الأب، تلكما الشريرتين اللتين تحوّلتا إلى كلبين أسودين، من بين الحكايات المثيرة لدي.

بعد ذلك أحببت الشعر العربي الحديث، الذي قادني إلى تجربة قراءة مهمة في شعر الهايكو الياباني، ذلك النوع من الشعر الذي جعلني أتأمل حياة الكائنات الصغيرة، الحياة الغائبة عن

---

(١) *مقتطف من ورقة حول جلسة «كتب غيَّرت حياتي»، مكتبة نيويورك العامة، يوم الأحد ٤ أيار/مايو ٢٠٠٨م.

نظرنا، ذلك الشعر الذي درّبني على الكتابة بشكل مختزل ومكثف، وعيٍّ عميقٌ يقدم صوراً رائعة معبّرة بأقل الكلمات الممكنة، ذلك الشعر الذي يستلهم الطبيعة بطريقة جديدة:

«الفراشة تصفق بجناحيها

كما لو لا تريد شيئاً

من هذا العالم».

مقطع آخر:

«اللص

اختلس كل ما عندي، سوى

القمر الذي كان على نافذتي».

مقطع أخير:

«حتى أمام جلالة الملك

لا ترفع الفزَّاعة

قبعتها المطوية».

في العشرين من عمري قرأت رواية «زوربا» للكاتب اليوناني نيكوس كازانتزاكي، وأصبتُ بدهشة كبيرة، فلم تكن تلك مجرد رواية، ولم تكن كتاباً فلسفياً أيضاً، بل إن شخصية زوربا ذات

الطابع الفلسفي، تلك التي عرفت الفلسفة والحكمة من تجارب الحياة، وليس من الكتب، قرأتها أكثر من مرة، وفي كل مرة كنت أدوّن بعض مقاطعها في دفتري، جعلتني هذه الرواية أعيد النظر في حياتي ونظرتي إلى العالم، فقد غيَّرت حياتي فعلاً من اليقين إلى الشك، ومن الإجابات الجاهزة إلى الأسئلة المرتابة، ومن التشدد إلى التسامح، ومن الانحياز إلى فكرة الانفتاح على الأفكار كلها، ومن النظر بنمطية إلى الأشياء اليومية المتكررة إلى النظر إليها كما لو كنت أراها للمرة الأولى، ومن النظر إلى ما تحت القدمين إلى النظر نحو الأفق الفسيح، ومن النظر إلى المرئي فعلاً إلى المتخيل أيضاً، ومن الكآبة والعبوس إلى الضحك وحب الحياة، علّمتني هذه الرواية أن التعبير عن الذات قد يكون بالكلام أو بالكتابة أو حتى بالرقص، فما أجمل رقصة زوربا اليونانية!

في العشرين، كان والداي قد ظنّا أن حياتي قد تحدَّدت بواسطتهما، وقد كانا مطمئنين إلى ذلك، فأبي يعتقد أنني سأصبح مزارعاً أو تاجر أدوات زراعية، بينما أمي تنتظر أن أكون شيخاً أو إماماً يقود الناس في الصلاة، لكنهما لم يعرفا أنني قد عثرت على أب جديد ومجنون، ينظر إلى الحياة بطريقة مختلفة، ذلك الأب الذي لم يخلِّف سوى بنت وحيدة من امرأة كانت تخونه مع الآخرين تحت كل شجرة، ذلك الأب الذي لم يعد أباً لطفلة، بل أصبح أبانا جميعاً، ونحن نتأمل ركضه وجنونه في مدينة يونانية صغيرة تدعى «كريت». شكراً السيد زوربا أن فتحت لي قلبك، وشكراً للسيد

كازانتزاكي، وشكراً للسيد جورج طرابيشي، المترجم اللبناني الذي نقل الرواية إلى اللغة العربية، فأنقذ حياتي وعطف بها الطريق إلى الحياة. فمنذ تلك اللحظة أحسستُ أنني سأكون شيئاً مختلفاً عما أراده والداي، فلن أعيش في مدينة زراعية صغيرة شمال الرياض كـ«بريدة»، ولن أدخل معهداً علمياً إسلامياً في الرياض، كما أراد أبي حين فشل في جعلي تاجراً، بل إنني سأكون شاعراً مثلاً، أو كاتب حكايات أسطورية، أو ما شابه ذلك.

في المقطعين التاليين، من رواية «زوربا» التي ترجمها إلى العربية جورج طرابيشي، شعرتُ أن الحياة أكثر تسامحاً ومرونة، وقدرة على إثارة الأسئلة، وأن العصا الذي يخبئه أبي قد يكون غصناً أحياناً، بل قد يتحول إلى شجرة، يقول زوربا:

«إنني أتمثل الله شبيهاً بي، إنما أكبر، وأقوى، وأكثر هموماً، وقبل كل شيء خالد. إنه يجلس مرتاحاً فوق جلود خراف لدنة، وكوخه هو السماء. إنه ليس مصنوعاً من صفائح الوقود مثل كوخنا، بل من الغيوم. وبيده اليمنى لا يمسك سيفاً أو ميزاناً - فهذه الآلات إنما هي للجزارين والعطَّارين- بل يمسك بإسفنجة مليئة بالماء، وكأنها غيمة من المطر. يمسح بها خطايا الروح».

وفي مقطع آخر: «ارتجف صوت زوربا غضباً: لماذا نموت؟

فأجبت خجلاً، وكأنني أسأل عن أبسط شيء ضروري، ومع ذلك يستحيل عليَّ أن أفسره: لست أدري زوربا!

- لست تدري! واستدارت عيناه ، تماماً كما استدارتا في تلك الليلة الأخرى التي اعترفت له أنني لا أعرف الرقص. وظل صامتاً لحظة، ثم انفجر فجأة:

- إذاً، فكل تلك الكتب القذرة التي تقرأها، ماذا تنفع، قل لي؟ لماذا تقرأها؟ وإذا كانت لا تجيب عن ذلك، فماذا تقول إذاً؟

- إنها تتحدث عن حيرة الإنسان الذي لا يستطيع أن يجيب عما يُسأل، يا زوربا.

وأنا أقول: إنها الكتب التي لا تجيب عن الأسئلة، لكنها تعلمنا الحيرة والقلق والحكمة أيضاً. إنها التي صنعت روايتك تلك، وأنت الذي ترجمت إلى اليونانية أهم كتب الموروث الأدبي الفلسفي: «الكوميديا الإلهية» لدانتي، و«فاوست» لغوته، و«هكذا تكلم زرادشت» لنيتشه.

إذاً، هناك كتب كثيرة غيَّرت حياتي ورسمت لي الطريق، فلا يمكن حصرها، وإن أمكن تعداد بعضها: «هكذا تكلم زرادشت» لنيتشة، «مائة عام من العزلة» لماركيز، «كائن لا تحتمل خفته» لميلان كونديرا، «سنة موت ريكاردو ريس» لساراماغو، «اسم الوردة» لإيكو، «مسخ الكائنات» لأوفيد، «ديوان المتنبي»، «الأعمال الشعرية» لآرثر رامبو، «سنة موت ريكاردو ريس» لخوسيه ساراماغو، «العطر» لباتريك زوسكيند، «عالم صوفي» لجوستاين غاردر، «ثلاثية نيويورك» لبول أوستر، «على الطريق» لجاك كرواك... إلخ.

سر الحكاية: فخاخ الرائحة[1]

ذات مساء صيفي بعيد، كنت أجلس مع عمِّي (والد زوجتي) في منزله بالبديعة، وكان مزاجه رائقاً، فلم يكفّ عن سرد الحكايات المسلِّية التي سمعها وقت أن كان طفلاً، ومن بين هذه الحكايات تهادت بالمصادفة حكاية قاطع الطريق الذي دفنه أمير القافلة في الرمل نكالاً بفعلته، وقد حاول أن يسرق القافلة ليلاً، فاكتشف سرَّه حرَّاس القافلة، وقبضوا عليه، فأمر أمير القافلة أن يدفن ورفيقه في الرمل حتى عنقيهما، خرجت من منزله في البديعة منتشياً بالحكاية، متذكراً رجلاً عجوزاً أسود، يعمل معنا كمراسل وصانع قهوة في المؤسسة، يقال إنه كان مخصياً منذ طفولته، بدأت خيوط الرواية تتشابك بشكل لحوح، كيف يمكن أن أصنع تفاصيل الرواية، كيف يمكن أن تتقاطع حياة هذين الرجلين، كيف يمكن أن أعود إلى زمن الصحراء، بهاء الصحراء، فداحتها، غموضها ومداها اللانهائي، كيف يمكن أن أتتبع حياة الرجل الأسود المخصي، أي

(١) *ورقة ألقيت في جامعة هارفرد، يوم الثلاثاء ٦ أيار/مايو ٢٠٠٨م.

حياة مؤلمة وجارحة عصفت به، كيف اصطاده الجلابة، وبأي وسيلة، وإلى أين اقتادوه، كيف باعوه إلى تجار الرقيق؟ وكيف سيتم تهريبه، وإلى أين؟ جدة أم الرياض؟ وإذا كانت جدة، فكيف هو حال الميناء الذي سيصل إليه زمن الستينيات أو ما قبل، وما ملامح شخصية المالك الجديد للرقيق الطفل؟ وكيف سيتم إخصاؤه؟ وكيف ستكون حياته في القصر وهو ملازم لعالم الرق والنساء، وما مصيره وقت تحرير العبيد في ستينيات الرياض، أي حياة ملعونة ستأتي على ما تبقى من إنسانيته؟

إذاً هي ليس مجرد حكاية، بل هي عملٌ يحتاج إلى بحث وتقصٍّ دقيق عن معلومات كثيرة غامضة، هكذا بدأت أتتبع حياة الرق، ووصلت إلى كتاب ثمين جداً، هو عبارة عن معلومات علمية ووثائق رسمية عن الرق في السودان، للدكتور محمد إبراهيم نقد، كانت الوثائق المصورة بشكلها الأولي في نهاية الكتاب كافية لفهم أسرار كثيرة عن عالم الرق، أسرار كانت غائبة عني، كما توصلت إلى معلومات شفهية من حالات عن وسائل صيد الرقيق في أفريقيا، وأحسست لحظة ذاك أنني قد جمعت تفاصيل مهمة عن شخصية العم توفيق، فهي أكثر الشخصيات الثلاث التي أصابتني بالقلق من أن أفشل في نسج خيوط عالمها، الأمر الذي جعلني أبحث كثيراً في هذا الموضوع. كان ثمَّة مأزق أعاقني كثيراً، لم أستطع أن أعثر على وثائق تكشف تفاصيله، وكيفية إنجازه، ألا وهو عملية الخصاء، شعرت بورطة حقيقية،

فاضطررت إلى أن أفهم الأدوات المستخدمة آنذاك، وألجأ إلى مخيلتي، فالمخيلة أحياناً أكثر بهاءً، وأكثر جلباً للدهشة والخلق المذهل، هكذا صنعت لحظة مأساوية في حياة الشاب الأسود من مخيلة أطلقتها ذات صباح كئيب.

أما شخصية ناصر، فأشعر أحياناً أنني كنت قد رأيته من قبل، لا أعرف أين، ربما في دار الحضانة للأطفال في حي عليشة بالرياض، أقول ربما لأنني أتذكر أنني كتبت، ذات مرة، قصة للأطفال الأيتام، لصالح المهرجان الخيري الأول للأيتام، وبعد أن كتبتها وعنونتها بـ«قلم أسود في غابة الألوان»، طلبت أن أزور دار الحضانة، بهدف الاطلاع على عالمهم من جهة، والتقاط صور فوتوغرافية لهم، لنشرها في نشرة المهرجان اليومية، وقد كنت آنذاك مصوراً فوتوغرافياً في جريدة الرياض، هكذا تذكرت الطفل الأسمر ماجد، بسنواته الست، وقد تعلَّق بي بشكل مجنون، وأصر على أن يأخذ الكاميرا الثمينة خاصتي، جعلته يجرب أن يلتقط صورة بها، لكنه بعد ذلك، ومع ضجيج اللقطاء أراد أن يحتفظ بالكاميرا، فوعدته أن أحضر له في الغد كاميرا صغيرة وجميلة، كاميرا صور فورية، أرسلت إليه الكاميرا، وتخيلت أنه يلتقط الصور ويحتفظ بها، لا أعرف كيف حاصرتني صور الغرف أو العنابر، أو ما يسمونه بأجنحة الأسر، وأسماء الأيتام الموزعة عليها، نظرة الحزن والحقد والجنون التي تحاصر بعضهم، هكذا ظهرت فجأة أمامي حكاية الملف الأخضر، الذي يحمل التاريخ

السرِّي لحياة ناصر، وهكذا وجدتني وقد أحاطت بي ثلاثة خيوط سردية: طراد وتوفيق وناصر.

كنت آخذهم معي وأنا ذاهبٌ أتسوق في أحياء شمال الرياض، شعوري بالقلق تجاه البناء الروائي كان يحاصرني، لا يمكن أن أفرِّط بحكايات ثمينة ومؤلمة ببساطة، كيف أجعل أمّ الحكايات الثلاث، وأعني حكاية قاطع الطريق الذي دفنوه في الرمل، هي محور الرواية، كيف أحافظ على سرها البديع إلى آخر صفحات روايتي الصغيرة، هكذا قررت ذات ليل شتائي، وأنا أقف بسيارتي أمام محل للخضار، وأفكِّر بروايتي الجديدة، أن أبدأ بمحاولة هروب الشخصية الرئيسة من الرياض، بعد أن وصل إلى مرحلة الملل، وقد طاش عقله، إذ يتذكر كيف يسخر منه موظفون صغار ومراهقون، وهم يكتشفون سر اللثام الذي يحيط به وجهه، فيخفي أذنه المقطوعة، ثم تراهن الرواية بعد ذلك على سر فقدان هذه الأذن، الذي لن أفصح عنه سوى في الفصل الأخير، لم يقطع هواجسي تلك اللحظة البعيدة، سوى رنين هاتفي المحمول، إذ كان الناشر خالد المعالي يهتف بي من ألمانيا: روايتك رائعة وسأطبعها خلال شهر فقط! كان يتحدث عن روايتي الأولى «لغط موتى»، إذ قرأها في رحلة بالقطار بين مدينتين في ألمانيا، وقرر أن ينشرها، هكذا تلقيت فرحة أولى مشجعة، ودفعة حقيقية ومعنوية كي أبدأ فعلاً مشروع كتابة روايتي الجديدة.

بعد أن قرأت في كتاب توثيقي عن الطبيعة الجغرافية لنجد للعلامة الراحل حمد الجاسر، والنباتات الموجودة في صحرائها الرملية، زرت أطراف صحراء الصمَّان في فصل الربيع، وتأملت الفضاء والرمل والنباتات، شممتها كلها، وتذوقت بعضها، بدأت أكتب سيرة البدوي طراد، والأساطير التي أحاطت بحياة أسرته في البر، ثم عدت إلى كتب مخططات سكنية لقصور جدة القديمة التي تخص الطبقات الأرستقراطية، وتأملت أقسام القصر ذي الطبقات المتعددة، والسلالم فيها، وغرفة الخدم والمعيشة، كنت أرى في بعض اللحظات الطفلين المهربين وهما يصعدان الدرجات في القصر، وأكاد أسمع وقع أقدامهما الحافية، وأصطاد دهشتهما من بذخ المكان الغريب، هكذا اخترت إحدى الغرف كي يتم إخصاء الصغير توفيق.

وقبل ذلك، كيف لي أن أعرف صيد الرقيق، ونقلهم، وبيعهم، فكان كتاب «علاقات الرق في المجتمع السوداني» لمحمد إبراهيم نقد، خير معين، خصوصاً في قسم الوثائق المنشورة في آخر الكتاب، والمتعلِّقة بعمليات فحص وبيع الرقيق في السودان.

كنت أكتب بشكل يومي، كما هي عادتي، حين أبدأ مشروع كتابة عمل جديد، ففي الصباح الباكر، أفتح شاشة جهازي المحمول، وأكتب بعد أن تكون الفكرة قد أنهكتني طوال الأمس، وأكلت أطرافي جيداً، كانت الفصول تسير بتتابع، متنقلاً بين

الشخصيات الثلاث، وكلما أمعنت في التعرُّف إليها من خلال الكتابة عنها، ازدادت وتيرة اللهاث خلفها، لم أزل أذكر كيف كان مشهد الذئب مؤلماً وممتعاً وهو ينهش رأس الضحية، قالت لي ناقدة عراقية ذات يوم: إن ملامحك وهدوءك توحي بأنك مسالم وحنون، كيف جاء كل هذا العنف والقسوة، كنت أسمع بكاء الكائنات في الصحراء وهي تنزف حزناً، كنت أنظر إلى السماء وأنتظر أن تتدخل لتنقذ الضحية الأخرى، هكذا كان، وهكذا خرج «طراد» ظافراً بحياته مقابل أذنٍ طارت في لمحة بصر.

ربما في مشهد آخر، وهو صراع قاطعي الطريق الذي امتد زهاء ساعتين أو أكثر، كنت مأخوذاً بمشهد صراع جلجامش وأنكيدو، تلك الأسطورة البابلية القديمة، وهما يتصارعان على ملك أوروك، لم أستطع أن أتخلص من صوت المغني الجزائري الأصل الفرنسي الجنسية عابد عازاريه، وهو يغني بإيقاع رتيب وعميق جداً، بصوت أجش، كأنما يخرج من مغارة لها عمق لا حد له، وهو يرسم مأساة موت أنكيدو، وحزن جلجامش لحظة اكتشاف الموت، وبحثه عن نبتة الخلود، وقبل ذلك صراعهما مثل ثورين، هكذا كانت المعركة، وهكذا تصالحا مثل لصّين شريفين، قد جاءت اللحظة تلك من اللاوعي، تماماً كما قد يظن البعض أنني كنت متأثراً لحظة الكتابة برواية «العطر» لباتريك زوسكيند، التي تتخذ من الرائحة هدفاً ومحوراً للرواية كلها، وهو ما لم أنصرف إليه، بقدر انشغالي بنماذج إنسانية مؤرقة وحزينة، مهملة ومهمَّشة

ومحبطة، تلكم النماذج التي لا تستطيع أن تخرج من حياتها، أن تغيِّر حياتها، فشخصية «طراد» التي حاولت منذ بدء الرواية الهروب من المدينة الموحشة، عادت مهزومة إلى المدينة/الجحيم، وشخصية «توفيق» التي تشبه طيراً مدجناً، لم يستطع أن يغامر ويترك القفص، بعد أن أعيدت إليه حريته، وتخلص من عبودية رأى أنها كانت أكثر جدوى من حرية مزعومة. فقط أبقيت شخصية «ناصر» اللقيط، وهو الأكثر شباباً، وأكثر أملاً بالمستقبل، أبقيت نهايته مفتوحة، هل سرق ملفه الأخضر كي يمزقه، ويمزق بالتالي حياته الملعونة، كي يصنع حياته الجديدة، الحرَّة، المتطلعة إلى المستقبل، قد يكون ذلك، وقد لا يصل القارئ إلى ما يشبه ذلك.

حاولت أن أوجدَ تفسيراً للأساطير الموجودة في الحجاز ونجد، وأستخدمهما بما يفيد النص ويثريه، فهناك أسطورتان قديمتان، لهما بعدٌ نفعيٌ وتبريري لوفرة المال فجأة، أو ولادة طفل بطريقة غير شرعية، فالمال الذي يتوافر بالمتاجرة بكل ما هو محظور، كتجارة البشر أو الرقيق مثلاً، تفسر بأن أحدهم مثلاً عثر على كنز من كنوز بني هلال، حينما حاول أن يبني بيته، وكذلك ولادة طفل مجهول الأب كانت تحال إلى أن البنت أو المرأة قامت بنشر ملابسها الداخلية في ليلة مقمرة، فاشتهاها القمر وضاجعها فحبلت. أذكر أنني حينما خلقت شخصية «خيرية» الحجازية، وجدت أنها شخصية غنية جداً، ويمكن أن تكون إحدى

الشخصيات الرئيسة في الرواية، إلا أنني كنت مضطراً إلى حسم شخصيات محددة، كشخصيات رئيسة، وأخرى ثانوية تحضر لتقدم دوراً جانبياً مؤثراً ثم تذهب في حال سبيلها.

كنت قلقاً تجاه اللغة وطبقاتها التي سأستخدمها في النص، فهناك شخصية الرجل البدوي، وهي لهجة ابن الصحراء الغضة، وهناك شخصية الرجل السوداني الذي لا يفتأ يتذكر الأحراش والقطاطي والنيل، وتأتي معها ذاكرة أغنية سودانية قديمة، مؤلمة ومعبرة كثيراً، وهناك اللغة الوصفية الشعرية، ولغة الوثائق الرسمية وغيرها، هذه الطبقات من اللغة هي أمر مؤرق فعلاً، حاولت أن أتخطاه بشجاعة، على ألا أخسر القارئ العربي المتعدد اللهجات، وفي الوقت نفسه أن يكون نصي قريباً وحميماً ويحمل الكثير من الإقناع بعالمه وشخوصه، وهكذا كانت التجربة المتعددة اللغات واللهجات.

صدر للكاتب

- «ظهيرة لا مشاة لها» (قصص)، الرياض 1989م.
- «رجفة أثوابهم البيض» (قصص)، دار شرقيات، القاهرة 1993م.
- «لا بد أن أحداً حرّك الكراسة» (نصوص)، دار الجديد، بيروت 1996م.
- «لغط موتى وقصص أخرى»، اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2000م.
- «لغط موتى» (رواية)، منشورات الجمل، كولونيا/المانيا 2003م.
- «فخاخ الرائحة» (رواية)، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 2003م (جائزة ألزياتور الإيطالية للآداب 2011م)، (القائمة النهائية لجائزة جان ميشالسكي السويسرية 2010م).

•«القارورة» (رواية)، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 2004، ط3 (2008).

•«النخيل والقرميد»، مشاهدات من البصرة إلى نورج (رحلات)، دار السويدي بالاشتراك مع المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2004م.

•«أخي يفتش عن رامبو» (قصص)، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، 2005م.

•«نزهة الدلفين» (رواية)، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 2006م.

•«الحمام لا يطير في بريدة» (رواية)، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، 2009م (جائزة أبو القاسم الشابي للرواية العربية 2011م).

•«الأشجار لم تعد تسمعني» (الأعمال القصصية)، الدار العربية للعلوم، بيروت، 2010م.

•صدر للكاتب بلغات أخرى:

•Wolves of the Crecent Moon، (Novel)، AUC Press، Cairo، 2007.

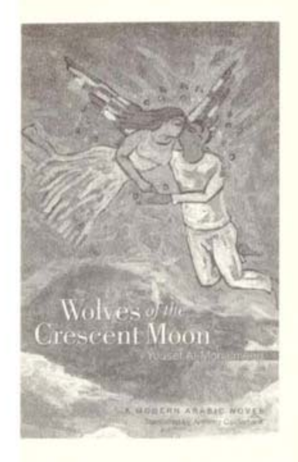
•Wolves of the Crescent Moon، (Novel)، Penguin USA، New York، 2007.

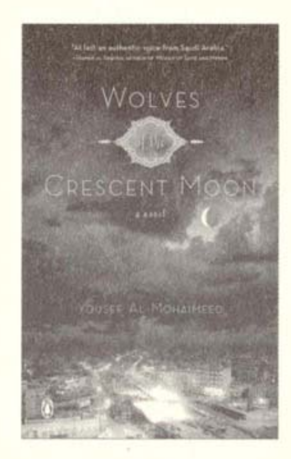
Loin de cet enfer، (Roman)، ACTES SUD،•
.2007 ،France

،Munira's Bottle، (Novel)، AUC Press، Cairo•
.2010

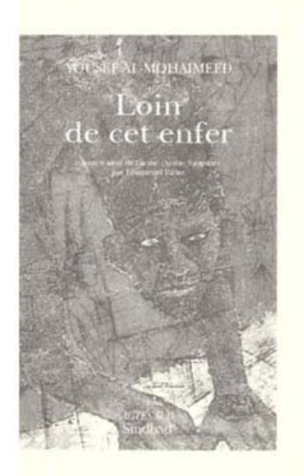
،Le trappole del profumo، (Narrativa)، aisara•
PREMIO LITTERARIO FRANCESCO) .2011
.(ALZIATOR

الكتب المترجمة للمؤلف













عناوين المؤلف:

الإيميل: yalmohimeed@hotmail.com

تويتر: @almohaimeed1964

فيس بوك: Yousef Al-Mohaimeed

الموقع الرسمي: www.al-mohaimeed.net



حجر أحمر في منهاتن

أقبلت من بعيد ست نساء متشابهات، شعورهن الناعمة مسدلة، ويغطين أعينهن بنظارات شمسية سوداء، وعباءاتهن لا تخفي تفاصيل أجسادهن، جئن صوبي، ثم تقدم نحوهن الشاب وفتح مظروفه، وصار يُخرج أوراق كل واحدة منهن، ويطلب منها أن توقع نموذج الطلب المكتمل، وفجأة أصبح أمامي ستة أفراد بدلاً من شخص واحد. جوازاتهن مدون على أغلفتها: المملكة المغربية. سألت نفسي: هل هن خياطات مغربيات سيذهبن إلى أمريكا كسائحات؟ وهل الشاب الأنيق كان مجرد معقب؟ تذكرت هيئات الشباب المعقبين القرويين والبدو، وملابسهم الرثة، أمام مبنى جوازات الرياض، هل يمكن أن يكون هذا الشاب الذي تفيض النعمة من خديه الناعمين مجرد معقب؟ وهل هذا الحذاء المميز والساعة الثمينة لمعقب؟ لا، أبداً، توصلت أخيراً إلى أنه مدير أو مشرف على قصر أمير، وهؤلاء النسوة عاملات في القصر، وسيسافرن مع مولاهن إلى أمريكا.

- يوسف المحيميد روائي سعودي، ذاعت شهرته وانتشرت رواياته بين القراء محلياً وعربياً، وتمكن بفضل ترجمة رواياته إلى خمس لغات، من الوصول إلى العالم، حتى بات اسماً صاعداً في سماء الأدب العالمي، كما وصفته الروائية الإمريكية آني برولكس.

حاز جوائز مختلفة أبرزها جائزة (أبو القاسم الشابي) للرواية العربية 2011م، وجائزة الزياتور الإيطالية للآداب 2011م.


ISBN 978-614-429-013-2

